

هَنِيئَعِل



معارك لهنيبعل
العسكرية

المانيا

النمسا

يوغوسلافيا

بياسيترا

معركة
تريبيا

معركة بحيرة
تراسيميت

معركة
كانيه
(كانوسا)

تريينثوم
(ترينتو)

روما

مرسيليا

ساغونتوم
(ساغنتو)

قرطاجنة
الجديدة
(قرطاجنة)

البحر المتوسط

الألبان

قرطاجنة
(تونس)

معركة
زاما

شمال افريقيا

أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْرِفُونَ عَنْ هَنِيْعَلٍ سِوَى أَنَّهُ ذَاكَ الرَّجُلُ الَّذِي عَبَرَ جِبَالَ
الْأَلْبِ بِعَدَدٍ مِنَ الْفِيلَةِ. غَيْرَ أَنَّكَ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ سَتَجِدُهُ الْقَائِدَ الْعَسْكَرِيَّ
الْمُحَنِّكَ الْمِعْوَارَ الَّذِي كَادَ أَنْ يُرَكَّعَ رُومًا وَفَاءً بِقَسَمِ عِدَاوَتِهِ الْأَزَلِيَّةِ لَهَا.

هَنِيْعَلُ

تَأَلِيفُ : ل. دُوغَارْدُ پِيْتَش
نَقْلُهُ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ : مُحَمَّدُ عَارِفُ الْاَكْحَل
وَضَعِ الرُّسُومَ : فِرَانْكَ هَمْفَرِيْس



© حَقُوقُ الطَّبْعِ مَحْفُوظَةٌ ، ١٩٧٨

طُبِعَ فِي انْكَلْتَرَا

النَّاشِرُونَ :

لُونْفَمَات
هَارْلُو

لِيْدِيْرْدُ بُوْك لِيْمْتِد
لَاْفَبُورُو

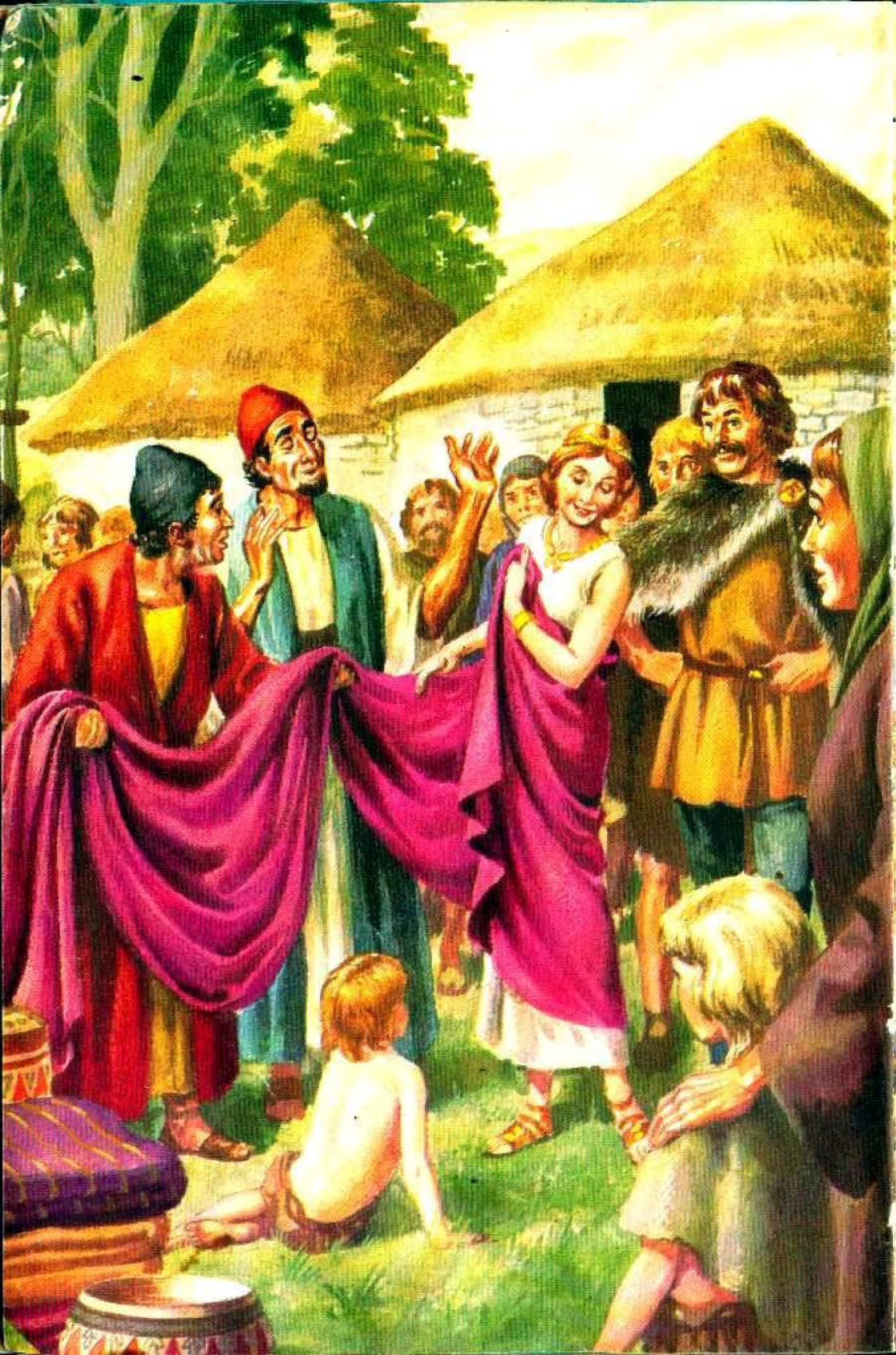
مَكْتَبَةُ لِبْنَان
بَيْرُوت

هَنِيْعَل

كَانَتْ مِصْرُ وَالْيُونَانُ وَرُومَا هِيَ الدُّوَلُ الثَّلَاثُ الْكُبْرَى الَّتِي أُرْسَتْ مِنْذُ أَمَدٍ
بَعِيدٍ أُسُسَ الْحَضَارَةُ كَمَا نَعْرِفُهَا الْيَوْمَ . وَكَانَتْ هَذِهِ الدُّوَلُ قَدْ تَعَلَّمَتْ بِدَوْرَهَا
مِنَ الْآخَرِينَ الَّذِينَ تَحَارَبَتْ مَعَهُمْ وَتَاجَرَتْ . وَمِنْهُمْ الْفِينِيقِيُّونَ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ
الْجُرَافِ وَالْمَهَارَةِ بِحَيْثُ أَقْلَعُوا . وَلِأَوَّلِ مَرَّةٍ . بِمَرَائِيهِمُ الصَّغِيرَةِ إِلَى بَحَارِ
مَجْهُولَةٍ وَرَاءَ مَضَائِقِ جَبَلِ طَارِقِ الَّتِي سَمَّاها الرُّومَانُ أَعْمِدَةَ هِرْقُلَ .

وَقَبْلَ أَنْ يَغْزُو يُولْيُوسُ قَيْصَرُ بَرِيطَانِيَا بِزَمَنِ بَعِيدٍ ، عَبَرَ الْفِينِيقِيُّونَ إِلَى
« الْكَاسِيْتَرَايْدُس » ، أَيِ جُزْرِ الْقَصْدِيرِ ، وَهِيَ إِمَّا بَرِيطَانِيَا أَوْ أَلْسِي (عِدَدٌ مِنْ
الْجُزْرِ الْوَاقِعَةِ جَنُوبَ غَرْبِ بَرِيطَانِيَا) . وَلَمَّا كَانُوا بَحَارَةً فَقَدْ تَعَلَّمُوا الْإِفَادَةَ مِنْ
الْمَدِّ وَالْجُزْرِ اللَّذِينَ لَا وُجُودَ لَهُمَا فِي الْبَحْرِ الْأَبْيَضِ الْمُتَوَسِّطِ . وَلَمَّا كَانُوا
تُجَّارًا فَقَدْ قَابَضُوا مَا عِنْدَهُمْ بِالْقَصْدِيرِ الَّذِي كَانَ يَنْدُرُ وُجُودَهُ فِي الشَّرْقِ .
وَدَّابَ الْفِينِيقِيُّونَ ، كَسَائِرَ الْبَحَارَةِ التُّجَّارِ ، عَلَى إِنْشَاءِ مَرَائِزِ تِجَارِيَّةٍ حَيْثُمَا
بَدَتْ الْفُرْصُ سَاحِحَةً . فَكَانَتْ هَذِهِ الْمَرَائِزُ مُنْتَشِرَةً حَوْلَ سَوَاحِلِ الْبَحْرِ
الْأَبْيَضِ الْمُتَوَسِّطِ . وَكَانَ أَحَدُهَا ، وَهُوَ قَرَطَاجَةُ ، قَدْ أُقِيمَ عَلَى سَاحِلِ إِفْرِيقِيَا
الشَّمَالِيَّةِ . وَبَنَى قَرُونًا الْمَرْكَزَ التُّجَّارِيَّ الرَّئِيسَ لِلْبَحْرِ الْأَبْيَضِ الْمُتَوَسِّطِ . وَلِهَذَا
لَمْ يَكُنْ بَدٌّ مِنْ وَقُوعِ صِدَامٍ إِنْ عَاجِلًا أَوْ آجِلًا بَيْنَ هَذَا الْمَرْكَزِ وَقُوَّةِ رُومَا
الْمُتَعَاظِمَةِ .

تَعْتَمِدُ التُّجَّارَةُ فِيهَا وَرَاءَ الْبَحَارِ عَلَى الْمِلَاحَةِ ، وَسَلَامَتُهَا تَعْتَمِدُ عَلَى
السَّيْطَرَةِ عَلَى الْبَحَارِ . وَبَعْدَ أَنْ دَمَّرَ الْإِسْكَندَرُ الْأَكْبَرُ صُورَ سَنَةِ ٣٣٢ (قَبْلَ
الْمِيلَادِ) انْتَقَلَتْ سِيَادَةُ الْبَحْرِ إِلَى قَرَطَاجَةِ .

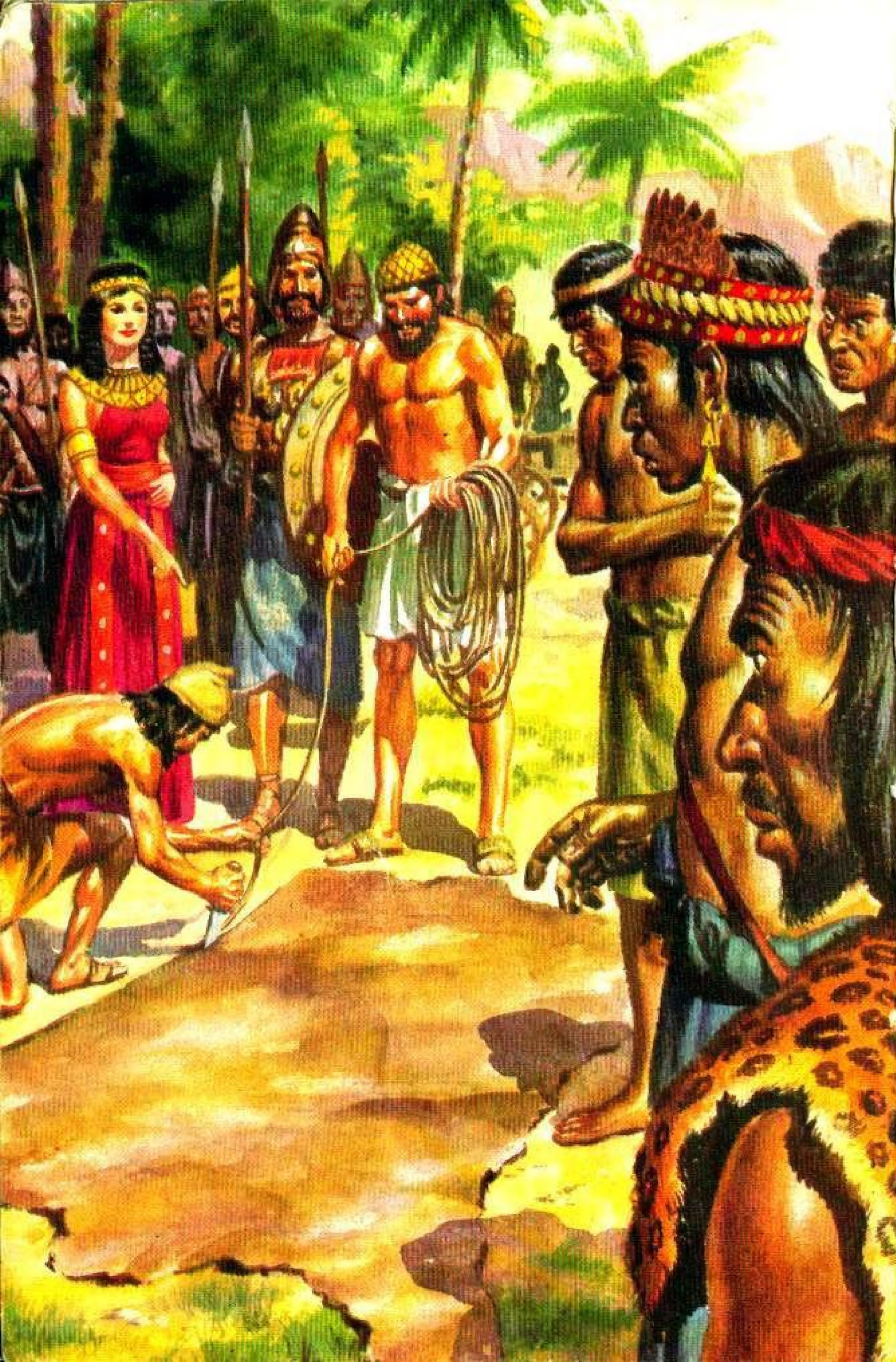


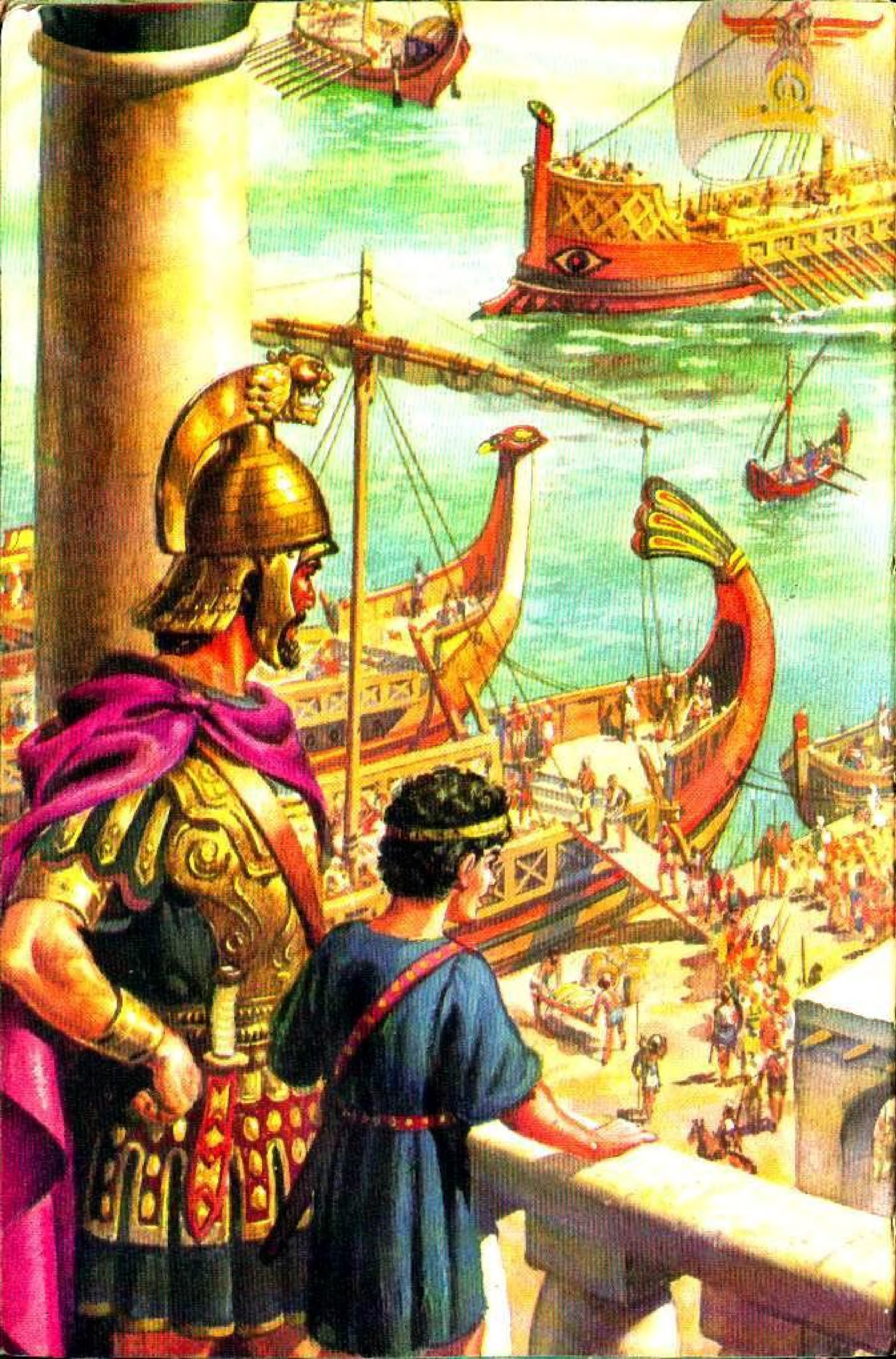
أَنشَأَ الْفِينِيقِيُّونَ مَرْكَزَ قَرْطَاجَةَ التَّجَارِيَّ بَيْنَ ٩٠٠ وَ ٨٠٠ ق. م. . أَيُّ
قَبْلَ حَوَالِي الْقَرْنِ مِنْ تَأْسِيسِ رُومَا . وَهَذَا يَعْنِي أَنَّهُ حِينَ أَصْبَحَتْ رُومَا مَكَانًا لَهُ
أَهْمِيَّتُهُ ، كَانَتْ قَرْطَاجَةُ الدَّوْلَةَ التَّجَارِيَّةَ وَالْبَحْرِيَّةَ الرَّئِيسَةَ فِي الْبَحْرِ الْأَبْيَضِ
الْمُتَوَسِّطِ . وَعَلَى مَرِّ الزَّمَنِ اتَّضَحَ لِلْقَرْطَاجِيِّينَ أَنَّ أَهْلَ رُومَا الْأَشْدَاءَ قَدْ
يُصْبِحُونَ مُنَافِسِينَ خَطِيرِينَ لَهُمْ عَلَى تِجَارَةِ الْبَحْرِ الْأَبْيَضِ الْمَتَوَسِّطِ .

وَتُفِيدُ أُسْطُورَةُ إِنْشَاءِ مَدِينَةِ قَرْطَاجَةَ أَنَّ عَدَدًا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ مِنْ صُورَ
مُنِحُوا الْحَقَّ فِي الْحُصُولِ عَلَى «رُقْعَةٍ مِنَ الْأَرْضِ بِحَتْوِهَا جِلْدُ ثَوْرٍ» . وَلَا شَكَّ
أَنَّ الْقَصْدَ كَانَ حِرْمَانِ أُولَئِكَ الْمُهَاجِرِينَ مِنَ الْأَرْضِ بِأَسْلُوبِ سَاخِرٍ .

وَكَانَ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ أَمِيرَةً صَمَّمَتْ عَلَى الْبَقَاءِ ، فَأَمَرَتْ بِتَقْطِيعِ جِلْدِ
الثَّوْرِ شَرْطًا رَفِيعَةً كَرِبَاطِ الْحِذَاءِ . وَلَمَّا عَقِدَتْ هَذِهِ الشَّرْطَ مَعًا مِنْ أَطْرَافِهَا
كَانَ طُولُهَا كَافِيًا لِنَطْوِيقِ ثَلَاثَةِ . وَعَلَى تِلْكَ الثَّلَاثَةِ شَبَدَ الْمُهَاجِرُونَ حِصْنًا . وَسُرْعَانَ
مَا نَشَأَتْ حَوْلَ ذَلِكَ الْحِصْنِ مُسْتَوْتُنَةٌ عُرِفَتْ بِاسْمِ قَرْطَاجَةَ - وَهُوَ التَّحْرِيفُ
الْيُونَانِيُّ وَالرُّومَانِيُّ لِاسْمِ قَدِيمٍ مَعْنَاهُ الْمَدِينَةُ الْجَدِيدَةُ .

كَانَ الْقَرْطَاجِيُّونَ بَحَّارَةً وَتَجَّارًا . وَلَمْ يَكُونُوا مُزَارِعِينَ . فَعَنَ طَرِيقَ التَّجَارَةِ
أَوْ الْغَزْوِ كَسَبُوا الْمَالَ لِشِرَاءِ الْعَبِيدِ الَّذِينَ يَزْرَعُونَ الْأَرْضَ وَيَحْصُدُونَ غُلَاتِهَا
الْوَفِيرَةَ . وَبِمَا أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَدْفَعُونَ لِلْعَبِيدِ أَجْرًا ، وَكَانُوا يَبِيعُونَ الْحِنْطَةَ لِمَنْ
يَدْفَعُ أَعْلَى سِعْرٍ ، فَإِنَّ أَرْبَاحَهُمْ كَانَتْ عَظِيمَةً جَدًّا .





وَيَبْرُزُ فِي الْمَجْتَمَعِ ، أحياناً ، أناسٌ يَكُونُونَ أَقْدَرُ مِنْ سَائِرِ الْقَوْمِ وَأَشَدَّ .
ونقولُ عن هؤلاءِ النَّاسِ عادةً بأنَّهم زُعماءُ بالفِطْرَةِ . وَقَدْ يُصْبِحُونَ رؤساءَ
دُولٍ ، أَوْ دِكْتاتورِينَ أَوْ مُسْتَشَارِينَ مُتَفَذِّينَ أَوْ قَادَةَ عُظَمَاءَ . وفي التَّارِيخِ
أَمْثَلُهُ عَدِيدَةٌ عَلَى اتِّقَالِ مِثْلِ هَذِهِ الْقُدْرَةِ مِنْ جِيلٍ إِلَى جِيلٍ .

وَتَحَدَّرَ وَالِدُ هِنْبَعْلَ ، هَمِيلْكَارُ بَارْكَا ، مِنْ أُسْرَةٍ ذَاتِ جَاهٍ وَسُلْطَانٍ .
وَهَمِيلْكَارُ بَارْكَا نَفْسُهُ كَانَ قَائِداً مَشْهُوراً قَادَ بِنَجَاحٍ جَيْشاً ضِدَّ الرُّومَانِ فِي
صِفْلِيَّةَ سَنَةِ ٢٤٧ ق . م . كما أَنَّهُ قَمَعَ ، فِي مَا بَعْدَ ، تَمَرُّدَ جَمَاعَةٍ مِنْ جُنْدِهِ
انْقَلَبُوا عَلَى قَرطَاجَةِ .

وقد وُلِدَ هِنْبَعْلُ (الَّذِي يَعْتَبَرُهُ كَثِيرٌ مِنَ الْمُؤَرِّخِينَ أَعْظَمَ قَائِدٍ عَسْكَرِيٍّ فِي
التَّارِيخِ) فِي قَرطَاجَةِ عَلَى الْأَرْجَحِ حِوَالَى سَنَةِ ٢٤٩ ق . م . وعاشَ حِوَالَى
سِتِّينَ عَاماً ، إِذْ يُعْتَقَدُ أَنَّهُ تُوْفِيَ عَامَ ١٨٥ ق . م .

كَانَ هَمِيلْكَارُ بَارْكَا قَدْ عَقَدَ الْعَزَمَ عَلَى أَنْ يُصْبِحَ وَلَدُهُ مِثْلَهُ قَائِداً مُقْتَدِراً ،
فَاصْطَحَبَهُ وَهُوَ لَا يَزَالُ صَبِيّاً فِي التَّاسِعَةِ مِنْ عُمُرِهِ . إِلَى إِسْبَانِيَا حَيْثُ كَانَ
الْقَرطَاجِيُّونَ قَدْ أَنْشَأُوا مُسْتَعْمَرَةً لَهُمْ . وَبَدَأَ تَدْرِيبُ الْقَائِدِ الْمُنْتَظَرِ لِلْجَيْشِ
الْقَرطَاجِيِّ فِي سِنٍ مُبَكَّرَةٍ . فَمَا أَنْ أَشْرَفَ هِنْبَعْلُ عَلَى الْعِشْرِينَ مِنْ عُمُرِهِ حَتَّى
عُهِدَ إِلَيْهِ الْقِيَامُ بِعِدَّةِ مُهِمَّاتٍ عَسْكَرِيَّةٍ صَغِيرَةٍ بِإِشْرَافِ وَالِدِهِ فِي بَدَايَةِ الْأَمْرِ .
ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ بِإِشْرَافِ صَهرِهِ هَسْدُرُوبَالِ الَّذِي تُوْفِيَ سَنَةِ ٢٢١ ق . م .
وَحِينَذَاكَ كَانَ هِنْبَعْلُ قَدْ أَصْبَحَ ضَابِطاً مُتَمَرِّساً .

إِنَّ التَّدْرِبَ الْعَسْكَرِيَّ الشَّامِلَ الَّذِي تَلَقَّاهُ هَنِيْبَعْلُ عَلَى يَدِ وَالِدِهِ . كَانَ لِنَايَةِ مُعَيَّنَةٍ . وَمُنْذُ أَنْ كَانَ هَنِيْبَعْلُ فِي التَّاسِعَةِ لَمْ تَعِبْ هَذِهِ الْغَايَةُ عَنْ بَالِهِ . فَقَبْلَ ذَهَابِهِ إِلَى إِسْبَانِيَا أَخَذَ عَلَى نَفْسِهِ عَهْدًا قَاطِعًا أَنْ يَحْقِيقَ دَوْمًا عَلَى رُومًا وَالرُّومَانِيِّينَ . كَانَ هَمِيلْكَارُ بَارْكَا قَدْ عَقَدَ الْعَزْمَ عَلَى أَنْ يَجْعَلَ مِنْ أَيْتِهِ رَجُلًا قَادِرًا عَلَى أَنْ يَسْتَمِرَّ فِي الْحَرْبِ ، إِذَا قُتِلَ هُوَ . وَأَنْ يَكْسِبَهَا . لِيَمْنَعَ رُومًا مِنَ السَّيْطَرَةِ عَلَى الْبَحْرِ الْأَبْيَضِ الْمُتَوَسِّطِ .

وَمُنْذُ أَيَّامِ يُولْيُوسَ قَيْصَرٍ دَرَجَ الْكَثِيرُ مِنَ الْقَادَةِ عَلَى تَدْوِينِ سِيرِ حَيَاتِهِمْ وَأَشْهَرِ مَعَارِكِهِمْ . وَلِسَوْءِ الْحَظِّ كَانَ الْعَدِيدُ مِنْهُمْ عَسْكَرِيِّينَ قَبْلَ أَنْ يَكُونُوا كُتَّابًا . فَجَاءَتْ كُتُبُهُمْ مُمِلَّةٌ جِدًّا . أَمَّا يُولْيُوسُ قَيْصَرٌ فَقَدْ كَانَ أَسْتِشَاءَ . فَبِالْإِضَافَةِ إِلَى كَوْنِهِ قَائِدًا عَسْكَرِيًّا بَارِزًا . كَانَ أَدِيبًا نَعْرِضُ لَنَا كُتُبُهُ صُورَةً حَيَوِيَّةً عَنْ حَيَاتِهِ وَأَيَّامِهِ .

كَانَتْ عِبْقَرِيَّةُ هَنِيْبَعْلُ الْعَسْكَرِيَّةُ تَفُوقُ عِبْقَرِيَّةَ قَيْصَرٍ . فَهَلْ كَانَ ذَلِكَ الْقَائِدُ أَدِيبًا مُسَاوِيًا لِقَيْصَرٍ ؟ هَذَا مَا لَمْ نَعْرِفْهُ . إِذْ لَمْ يَصِلْنَا شَيْءٌ مِنْ كِتَابَاتِهِ . وَلَكِنَّا نَعْلَمُ مِنْ شَهَادَةِ الْآخَرِينَ أَنَّهُ عَامِلٌ أَسْرَاهُ مُعَامَلَةً تَفْضُلُ مُعَامَلَةَ أَيِّ قَائِدٍ رُومَانِيٍّ فِي زَمَانِهِ . وَأَنَّهُ كَانَ قَائِدًا ذَا عَزِيمَةٍ حَدِيدِيَّةٍ وَصَبْرٍ لَا يَنْفَدُ . وَفَوْقَ هَذَا وَذَلِكَ كَانَ كُلُّ الَّذِينَ خَدَمُوا تَحْتَ إِمْرَتِهِ يَتَّقُونَ بِهِ وَيُطِيعُونَهُ دُونَهَا سُؤَالَ . وَمِنْ هُنَا يُمَكِّنُ الْإِفْتِرَاضُ بِأَنَّ هَنِيْبَعْلَ كَانَ يَسْمَعُ بِشَخْصِيَّةِ أَسْرَةٍ . وَهِيَ صِفَةٌ نَادِرَةٌ ، بَلْ عَجِيبَةٌ . يَتَفَاعَلُ مَعَهَا النَّاسُ بِشَكْلِ غَرِيزِيٍّ . كَمَا أَنَّهَا الظَّاهِرَةُ الْمُمِيزَةُ لِمُعْظَمِ الْمُثَلِّينَ وَالْخُطَبَاءِ النَّاجِحِينَ . وَعِنْدَمَا تُكُونُ الْحِزْمَةُ الرَّئِيسِيَّةُ فِي خُلُقِ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ . فَإِنَّهَا تُؤَلِّدُ نَفُودًا طَاطِعِيًّا أَمَّا لِلْخَيْرِ أَوْ لِلشَّرِّ .



وَعِنْدَمَا أَغْتِيلَ هَسْدُرُوَالُ كَانَ هَنِيْبَعْلُ فِي السَّادِسَةِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ عَمْرِهِ
تَقْرِيْبًا ، وَمَعَ أَنَّ تَارِيْخَ مِيْلَادِ هَنِيْبَعْلٍ غَيْرُ ثَابِتٍ فَانِ مَا ذَكَرْنَاهُ عَنْ سِنِّهِ آنَذَاكَ ،
قَرِيْبٌ جَدًّا مِنَ الصَّحَّةِ . وَكَانَ كُلُّ مَنْ هَسْدُرُوَالُ وَهَنِيْبَعْلُ قَائِدًا يَحْظَى بِثِقَةٍ
الْجِيْشِ وَوَلَائِهِ . أَمَّا هَنِيْبَعْلُ فَقَدْ نَشَأَ بَيْنَ الْجُنُودِ يُشَارِكُهُمُ الصَّعَابَ وَالْمَخَاطِرَ .
أَثْبَتَ أَنَّهُ مُقَاتِلٌ جَرِيءٌ وَقَائِدٌ مَاهِرٌ ، وَفَوْقَ هَذَا وَذَلِكَ كَانَ نِعَمَ الرَّفِيقِ . فَاعْتَبَرَهُ
رِجَالُهُ وَاحِدًا مِنْهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ لَمْ يَتَرَدَّدُوا إِطْلَاقًا فِي الثَّقَةِ بِهِ وَإِطَاعَتِهِ كَقَائِدٍ .
قَدْ تَقَرُّوا فِي كُتُبٍ مِنْ هَذِهِ السَّلْسِلَةِ عَنْ قَائِدَيْنِ شَابِيَيْنِ نَاجِحَيْنِ آخَرَيْنِ هُمَا
الْإِسْكَندَرُ الْأَكْبَرُ الَّذِي أَجْتَازَ مَضِيقَ الدَّرْدَنِيْلِ وَهُوَ فِي الثَّانِيَةِ وَالْعِشْرِينَ عَلَى
رَأْسِ جِيْشٍ مِنْ خَمْسَةِ وَعِشْرِينَ أَلْفَ رَجُلٍ ، وَنَابُولْيُونُ الَّذِي قَادَ مَجْمُوعَةً
سَاحِطَةً مُفَكِّكَةً مِنْ سِتَّةِ وَثَلَاثِينَ أَلْفَ ضَابِطٍ وَجُنْدِيٍّ عَلَى وَشَلِكِ التَّمَرْدِ .
فَوْقَ الثَّلْجِ وَالْجَلِيدِ عَبَرَ مَمَرَاتِ الْأَلْبِ إِلَى إِيطَالِيَا . إِلَّا أَنَّ لِكُلِّ مِنْهُمَا رَصِيدًا
غَيْرَ الشَّبَابِ .

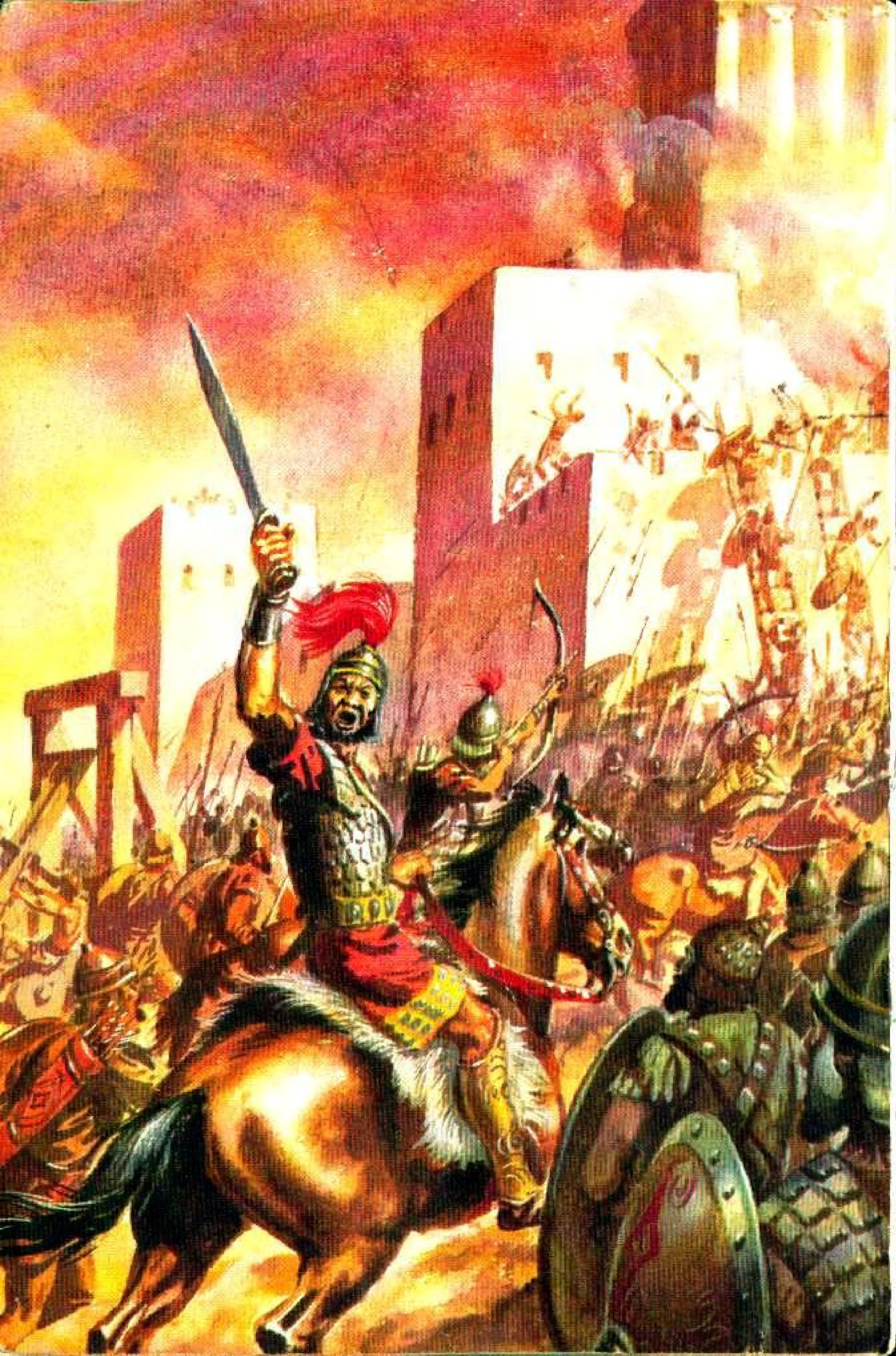
فَكَانَ جُنُودُ الْإِسْكَندَرِ يَتَّبِعُونَهُ بِكُلِّ تَفَانٍ أَلْفَ أَلْمِيَالٍ . وَكَانَتْ مَحَبَّةُ
جِيُوشِ نَابُولْيُونِ وَطَاعَتُهَا هُمَا اللَّتَانِ أَوْحَتَا بِاللَّقَبِ الَّذِي أَطْلَقَتْهُ هَذِهِ الْجِيُوشُ
عَلَيْهِ وَهُوَ - الْعَرِيفُ الصَّغِيرُ .

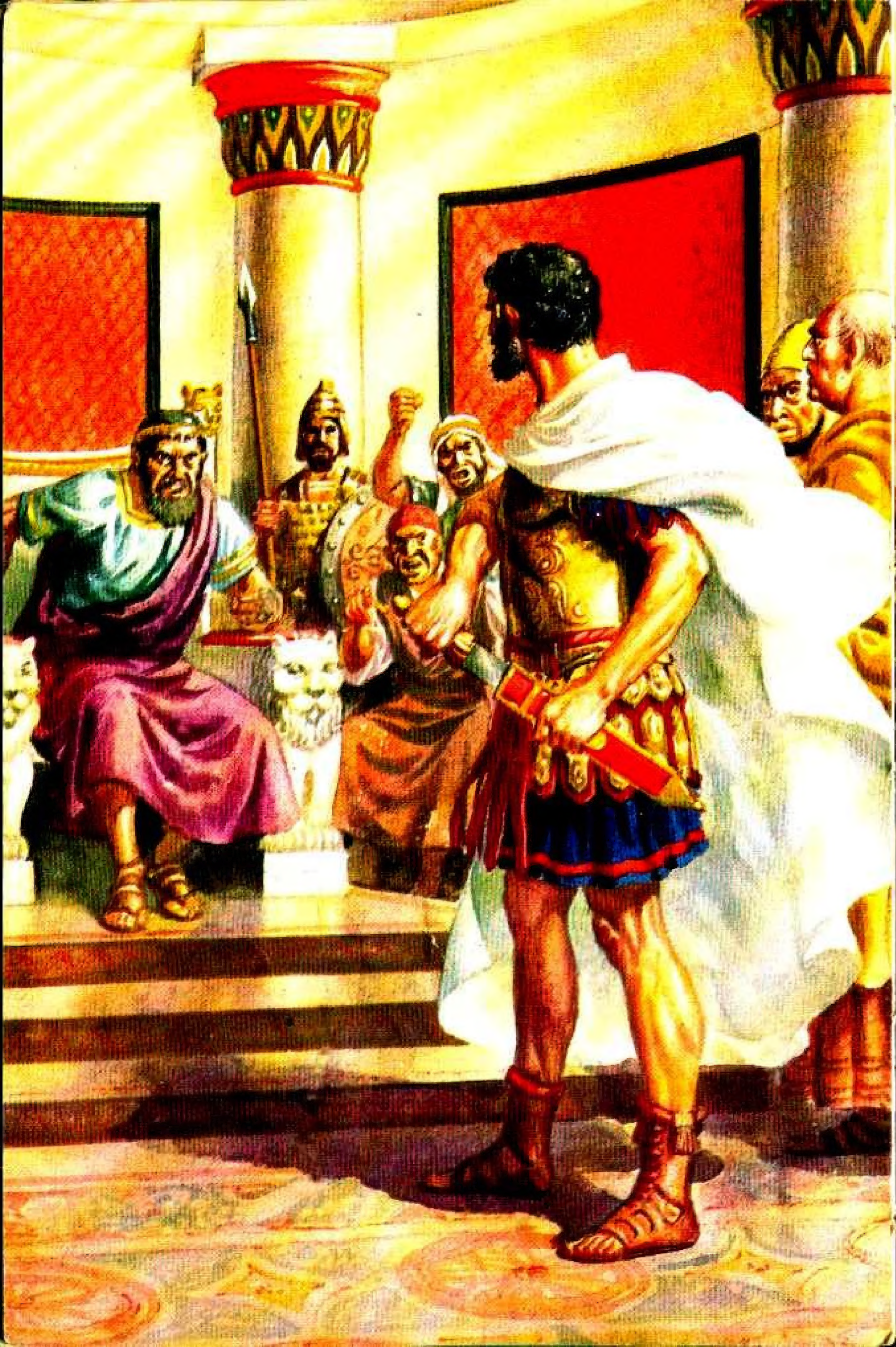
لَا يَكْفِي أَنْ يَكُونَ الْقَائِدُ قَدِيرًا لِيَكْتَسِبَ تَفَانِي رِجَالِهِ . فَقَدْ تَعَلَّمَ الْإِسْكَندَرُ
مِنْ هُجُومِهِ عَلَى إِحْدَى الْمَدُنِ الَّتِي كَانَتْ تَحْتَ سَيْطَرَةِ الْمَالِيَيْنِ ، وَتَعَلَّمَ نَابُولْيُونُ
عِنْدَ جِسْرِ لُودِي أَنَّ الضَّابِطَ الَّذِي يَصِيحُ بِجُنُودِهِ «إِتْبَعُونِي» ، مَهْمَا كَانَتْ
رُبَّتُهُ ، لَهُوَ أَفْضَلُ قَائِدٍ مِنَ الْجِنَرَالِ الَّذِي يَصِيحُ بِجُنُودِهِ «تَقَدَّمُوا!» . مَهْمَا
عَلَا صَوْتُهُ .

قُتِلَ هَسْدُرُوبَالُ وَهُوَ لَا يَزَالُ شَابًّا نِسْبًا. وَكَانَ قَدْ عَقَدَ مُعَاهِدَةً غَيْرَ مُوَفَّقَةٍ
مَعَ رُومَا. وَتَمَّ الْأُتْفَاقُ بِمُوجِبِ هَذِهِ الْمُعَاهِدَةِ عَلَى أَنْ يَكُونَ نَهْرُ إِبْرُو الْحَدَّ
الشَّمَالِيَّ لِلْمُسْتَعْمَرَةِ الْقَرطَاجِيَّةِ فِي إسبَانِيَا وَأَنْ تَبْقَى الْبِلَادُ إِلَى الشَّمَالِ مِنَ النَّهْرِ
تَحْتَ حُكْمِ رُومَا. إِلَّا أَنَّ هُنَاكَ اسْتِثْنَاءً وَاحِدًا وَهُوَ أَنَّ مَدِينَةَ سَاغُنْتُومَ مَعَ
مَرْفَئِهَا إِلَى الْجَنُوبِ مِنْ إِبْرُو بَقِيَتْ رُومَانِيَّةً.

وَإِذَا نَظَرْنَا إِلَى خَارِطَةِ إسبَانِيَا نَرَى أَنَّ نَهْرَ إِبْرُو يَبْعُجُ مِنْ جِبَالِ كَنْتَابْرَا عَلَى
بُعْدِ حَوَالَى ثَمَانِينَ كِيلُومِتْرًا إِلَى الْجَنُوبِ مِنْ بِلْبَاوِ عَلَى السَّاحِلِ الشَّمَالِيِّ.
وَيَجْرِي بِاتِّجَاهِ الْجَنُوبِ الشَّرْقِيِّ مَسَافَةً ٧٤٤ كِيلُومِتْرًا لِيَصُبَّ فِي الْبَحْرِ الْأَبْيَضِ
الْمُتَوَسِّطِ. وَعَلَى مَسَافَةِ ١٤٤ كِيلُومِتْرًا تَقْرِبًا إِلَى الْجَنُوبِ مِنْ مَصَبِّ إِبْرُو تَقَعُ
سَاغُنْتُومَ. وَمَعَ أَنَّ الْقِسْمَ الْأَكْبَرَ مِنْ إسبَانِيَا بَقِيَ مُسْتَعْمَرَةً قَرطَاجِيَّةً. فَقَدْ كَانَ
فِي وَسْعِ الرُّومَانِ أَنْ يُنْزِلُوا إِلَى الْبَرِّ جَيْشًا غَازِيًا وَأَنْ يُعَزِّزُوهُ مَتَى شَاقُوا
بِاسْتِعْمَالِهِمْ مَرْفَأً سَاغُنْتُومَ.

وَكَانَ هَمِيلُكَارُ بَارَكَا الَّذِي كَرِهَ رُومَا يُدْرِكُ هَذَا الْخَطَرَ وَمَا كَانَ لِيُؤَافِقَ أَبَدًا
عَلَى الْمُعَاهِدَةِ الَّتِي أَجْرَاهَا هَسْدُرُوبَالُ. وَبَرَّجَحُ أَنْ سَبَبَ تَضَمُّمِهِ عَلَى
اِحْتِلَالِ إسبَانِيَا كَانَ الْأَسْتِعْدَادُ لِنُفُوزِ شَمَالِ إِيطَالِيَا عَبْرَ جِبَالِ الْأَلْبِ. وَكَانَ
الْأُسْطُولُ الرُّومَانِيُّ قَدْ أَصْبَحَ أَقْوَى بِكَثِيرٍ مِنْ أُسْطُولِ قَرطَاجَةِ، فَاضْطُرَّ هَنِيْبَعْلُ
إِلَى اِحْتِلَالِ سَاغُنْتُومَ تَفَادِيًا لِخَطَرِ وُجُودِ جَيْشِ رُومَانِيٍّ فِي مُوْخَرَتِهِ.
وَبِهَذَا خَرَقَ الْمُعَاهِدَةَ الَّتِي عَقَدَهَا هَسْدُرُوبَالُ. وَلَمْ يَكُنْ أَمَامَهُ خِيَارٌ آخَرُ.
فَكَفَاءَتِهِ الْعَسْكَرِيَّةُ كَانَتْ أَعْظَمَ مِنْ أَنْ يُعَرَّضَ نَفْسَهُ لَذَلِكَ الْمَازِقِ.





ضَرَبَ هَنِيْبَعْلُ الْحِصَارَ عَلَى سَاغُنْتُومَ فِي رَبِيعِ سَنَةِ ٢١٩ ق. م. عَلَى الرَّغْمِ مِنْ اَعْتِرَاضَاتِ مَجْلِسِ الشُّبُوحِ الرُّومَانِيِّ. وَبَعْدَ ثَمَانِيَةِ أَشْهُرٍ سَقَطَتْ سَاغُنْتُومَ فِي يَدَيْهِ، وَهَكَذَا زَالَ خَطَرُ انْخِرَاطِهِ فِي قِتَالٍ فِي الْمُوَخَّرَةِ.

وَنَحْنُ مِيَالُونُ إِلَى أَنَّ نَتَمَثَّلَ صُورَةَ رُومًا بِاعْتِبَارِهَا امْبِرَاطُورِيَّةَ الْقِيَاصِرَةِ الْقَوِيَّةِ. غَيْرَ أَنَّ رُومًا عَامَ ٢٠٠ ق. م. كَانَتْ غَيْرَ ذَلِكَ تَمَامًا. إِنَّ هَنِيْبَعْلَ، عِنْدَمَا قَرَّرَ مُهَاجِمَةَ سَاغُنْتُومَ كَانَ يَتَحَدَّى عَدُوًّا يُمْكِنُهُ أَنْ يَتَغَلَّبَ عَلَيْهِ.

وَأَسْتَعْرِقُ احْتِلَالُ الْحِصْنِ وَالْمَرْفَأِ فِي سَاغُنْتُومَ وَقْتُاً أَكْثَرَ مِمَّا قَدَّرَهُ هَنِيْبَعْلُ. وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ أَلْسْفُنَ الرُّومَانِيَّةَ كَانَتْ قَادِرَةً عَلَى إِمْدَادِ الْمَدِينَةِ بِحَرًّا بِالْمُونِ وَالرُّجَالِ. وَعِنْدَمَا زَالَ خَطَرُ هَذَا الْجَيْبِ الرُّومَانِيِّ أَصْبَحَ فِي وَسْعِ هَنِيْبَعْلَ أَنْ يَزْحَفَ شِمَالاً بِحَرِّيَّةٍ.

سَبَقَ لِلرُّومَانِ أَنْ أَنْذَرُوا الْقَرَطَاجِيِّينَ بِأَنَّ الْهَجُومَ عَلَى سَاغُنْتُومَ سَتَكُونُ لَهُ عَوَاقِبُ وَخِيْمَةٌ. أَمَّا الْآنَ فَقَدْ أَصْرُوا عَلَى أَنْ يُسَلِّمَ لَهُمْ هَنِيْبَعْلُ أَسِيرًا مُقْبِداً بِالسَّلَاسِلِ، وَأَنْ تَعُودَ حَامِيَةُ رُومَانِيَّةٍ إِلَى احْتِلَالِ مَرْفَأِ سَاغُنْتُومَ. وَقَدْ وَقَفَ الْمَبْعُوثُ الرُّومَانِيُّ إِلَى قَرَطَاجَةِ أَمَامَ مَجْلِسِ الشُّبُوحِ الْقَرَطَاجِيِّ وَقَفَّةً تَعَجُّرْفٍ مُوجَّهًا إِلَيْهِ تَهْدِيدَهُ. فَكَانَ ذَلِكَ مَشْهَدًا مَثِيرًا. لَقَدْ صَاحَ بِقَوْلِهِ: «جِئْتُكُمْ بِالسَّلَامِ أَوْ بِالْحَرْبِ. فَاخْتَارُوا!» فَاجَابَهُ الشُّبُوحُ بِهَدُوءٍ: «مَا نَخْتَارُهُ أَنْتَ؟». فَطَرَحَ السَّفِيرُ عَنْهُ عِبَاءَةَ السَّلَامِ الْبَيْضَاءَ وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى سَيْفِهِ وَصَاحَ: «هَذَا هُوَ رَدُّ رُومًا!»

أَتَّخَذَتِ الْإِنهَارَ عِبْرَ التَّارِيخِ حُدُوداً فَاصِلَةً. فَاجْتِيَازَ أَحَدَهَا إِذَا كَانَتْ لَهُ
أَحِبَاناً أَهْمِيَّةٌ. وَيَصْدُقُ هَذَا عَلَى عُبُورِ قَبْصَرِ نَهْرِ رُوبِيكُونِ عِنْدَمَا قَالَ: «مَا
كَانَ قَدْ كَانَ». يَعْنِي أَنَّهُ قَدْ أَقْدَمَ عَلَى أَمْرِ لَا رُجُوعَ عَنْهُ.

وَعُبُورُ هِنِيْبَعْلَ نَهْرِ إِبْرُو لَهُ أَهْمِيَّةٌ مُمَاتِلَةٌ. وَقَدْ كَانَ هَذَا النَّهْرُ خِلَافاً لِنَهْرِ
رُوبِيكُونِ. مُحْتَمِياً حِمَايَةً قَوِيَّةً. وَمَا أَنْ أَصْبَحَ هِنِيْبَعْلُ عَلَى ضِفْتِهِ الْأُخْرَى
حَتَّى أَدْرَكَ أَنَّهُ سُبُوحُهُ مِثَالِ الْكِلُومِتْرَاتِ مِنَ الْأَرْضِ الشَّدِيدَةِ الْوَعُورَةِ
وَسِلْسِلَتَيْنِ مِنَ الْجِبَالِ هُمَا الْبَيْرِنَةُ وَالْأَلْبُ. وَنَهْرُ الرُّونِ. السَّعْبَرُ الْحَصِينُ
الْآخِرُ. بَمَرِّ بَيْنَ هَاتَيْنِ السِّلْسِلَتَيْنِ. وَكَانَتْ طَرِيقُهُ. عَمَلِيّاً، تَمُرُّ عِبْرَ أَرْضٍ
تَقْطُنُهَا الْقَبَائِلُ السَّلْتِيَّةُ الْمُعَادِيَّةُ مَعَ وُجُودِ حَامِيَّاتِ رُومَانِيَّةٍ فِي مَوَاقِعَ رَئِيسِيَّةٍ.
وَلَا نَعْلَمُ عَلَى وَجْهِ التَّحْقِيقِ الطَّرِيقَ الَّتِي سَلَكَهَا هِنِيْبَعْلُ. وَحَتَّى فِي أَيَّامِنَا
هَذِهِ فَإِنَّ السَّيْرَ مِنْ طَرُوشَةِ عَلَى نَهْرِ إِبْرُو إِلَى رُومَا لَيْسَ بِالْأَمْرِ الْبَسِيرِ. وَلَكِنْ إِنْ
تَتَخَيَّلَ مَا كَانَ عَلَى الْجُنُودِ أَنْ يُبْلِقُوهُ فِي أَيَّامِ هِنِيْبَعْلَ وَمَعَهُمْ عَرَبَاتٌ تَجْرُهَا
الْثِيرَانُ وَفِيلَةٌ تَحْمِلُ الْمَوْنَ. بِالإِضَافَةِ إِلَى خَطَرِ وَقُوعِ هُجُومٍ عَلَيْهِمْ مِنْ جَانِبِ
قَبَائِلَ مُتَوَحِّشَةٍ تَرْمِيهِمْ بِالصُّخُورِ.

وَكَانَ لِهِنِيْبَعْلَ أَخٌ أَصْغَرُ مِنْهُ أَسْمُهُ هَسْدُرُوبَالُ بَارْمَا - وَنَذَكَرَ أَنَّ صِهْرَهُ
الَّذِي مَاتَ غِيلَةً كَانَ أَسْمُهُ أَيْضاً هَسْدُرُوبَالُ. وَكَانَ هَسْدُرُوبَالُ بَارْمَا كَذَلِكَ
ضَابِطاً مُدَرِّباً. وَنُسَكِّنَا أَنْ نَتَصَوَّرَ الْأَخَوَيْنِ عَاكِفَيْنِ عَلَى دِرَاسَةِ الْخُطْطِ الَّتِي
وَضَعَهَا وَالِدُهُمَا هَمِيلْكَارُ. لَقَدْ وَاجَهَ الْقَائِدَانِ الشَّابَانِ حَمَلَةً عَسْكَرِيَّةً غَايَةً فِي
الصُّعُوبَةِ. وَكَانَ هَمِيلْكَارُ يُلقَّبُ هَسْدُرُوبَالُ وَهِنِيْبَعْلُ بَانِهَمَا «شِبِلَا الْأَسَدِ».
وَسَرَّعَانَ مَا أَتَيْنَا أَنَّهُ كَانَ عَلَى صَوَابٍ.

إِنَّ صُعُوبَاتِ السَّيْرِ الطَّوِيلِ مَعَ التَّعَرُّضِ لِلْهَجُومِ الْمُسْتَعِزِّ تَكْفِي لِشَيْءٍ قَائِدٍ
دُونَ هَنْبَعَلٍ عَزِيمَةٍ عَنْ غَايَتِهِ ، غَيْرَ أَنَّ هَنْبَعَلًا كَانَ قَدْ أَقْسَمَ يَمِينًا قَاطِعَةً بِأَنْ
يُوَاصِلَ الْحَمْلَةَ عَلَى رُومَا ، وَكَانَ يَعْتَقِدُ اعْتِقَادًا رَاسِخًا أَنَّ الْحِنْثَ بِهَذِهِ الْيَمِينِ
سَيُسَبِّبُ كَارِثَةً .

وَكَانَ الْجَيْشُ الَّذِي تَحْتَ إِمْرَتِهِ سَبِيًّا أَكْبَرَ لِلْقُلُوقِ . فَرِجَالُهُ مُتَنَوِّعُونَ أَجْناسًا
وَالْوَنَاءُ . فَمِنْ فُرْسَانِ نُوْمِيدِيِّينَ مِنْ إِفْرِيقِيَا إِلَى غَالِيَّينَ مِنْ إِسْبَانِيَا - لُغَاتُهُمْ
مُخْتَلِفَةٌ وَأَسَالِيْبُهُمْ فِي الْقِتَالِ مُتَفَاوِتَةٌ جَدًّا ، كَمَا أَنَّهُمْ مِنْ بُلْدَانٍ يُنَاصِبُ بَعْضُهَا
بَعْضًا الْعَدَاوَةَ الْمَرِيرَةَ . فَكَانُوا يُحَارِبُونَ كَجُنُودٍ مُزْتَرِقَةٍ . أَيْ فِي سَبِيلِ الْأَجْرِ ،
وَهُوَ ضَعِيفٌ جَدًّا ، وَطَمَعًا بِالْأَسْلَابِ ، وَهِيَ كَبِيرَةٌ إِذَا قِيَضَ لَهُمُ النَّصْرُ .

أَمَّا الْجَيْشُ الرَّومَانِيُّ فَكَانَ بِالْمُقَابِلِ مُؤَلَّفًا فِي مُعْظَمِهِ مِنْ رِجَالٍ مُتَجَانِسِينَ
عِرْقًا وَلُغَةً وَفَوْقَ ذَلِكَ كَانُوا يُقَاتِلُونَ دِفَاعًا عَنْ وَطَنِهِمْ بِسَالَةِ الْجُنُودِ الْمُدَرَّبِينَ
وَوُلاَئِ الْمَوَاطِنِينَ . فَكَانَتْ حُرُوبُ الطَّرَفَيْنِ صِرَاعًا بَيْنَ الْوَطَنِيَّةِ وَالطَّمَعِ .

وَلَمْ يَكُنْ هَنْبَعَلُ الَّذِي بَلَغَ مِنَ الْخَيْرَةِ الْعَسْكَرِيَّةِ شَأوًا بَعِيدًا لِيُسْقِطَ كُلَّ
هَذِهِ الْأُمُورِ مِنْ حِسَابِهِ . فَقَدْ أَذْرَكَ أَنَّ الْكَثِيرَ مِنْ رِجَالِهِ ، إِنْ لَمْ يَكُنْ
جَمِيعُهُمْ . لَيْسُوا مُدَرَّبِينَ ، وَأَنَّهُمْ لَيْسُوا مُنَظَّمِينَ تَنْظِيمًا حَسَنًا . وَلَمْ يَأْلَفُوا
الْإَنْضِبَاطَ ، وَأَنَّهُمْ يُحَارِبُونَ فِي سَبِيلِ دَوَافِعَ دُونَ دَوَافِعِ الرُّومَانِ رُسُوخًا .
وَلِهَذَا فَإِنَّهُ اتَّكَلَ عَلَى شَيْءٍ آخَرَ . فَقَدْ كَانَ جَيْشُهُ مُؤَلَّفًا مِنْ رِجَالٍ ، مَهْمَا تَكُنْ
كَرَاهِيَةُ أَحَدِهِمْ لِلْآخَرِ . مُخْلِصِينَ كُلَّ الْإِخْلَاصِ لِشَخْصِهِ . وَهَذَا الْعَامِلُ هُوَ
الَّذِي يَجْعَلُ الْمُعَادِلَةَ مُخْتَلِفَةً كُلَّ الْإِخْتِلَافِ .

عَلَى قَائِدِ الْجَيْشِ الْعَصْرِيِّ الَّذِي يُخَطِّطُ لِلتَّقْدُمِ أَنْ يَعْرِفَ سَلْفًا مَا إِذَا
كَانَتْ الطَّرِيقُ عَرِيبَةً وَالْجُسُورُ قَوِيَّةً إِلَى حَدِّ يَكْفِي لِمُرُورِ دَبَابَاتِهِ أَوْ مَدَافِعِهِ
الضَّخْمَةِ . فَيَدْرُسُ الْخَرَائِطَ وَالصُّوَرَ الْمُنْقَطَعَةَ مِنَ الْجَوِّ وَتَقَارِيرَ الْجَوَاسِيْسِ .
بَلْ وَالصُّوَرَ الَّتِي بَلَّتْ قِطْعُهَا السِّيَاحُ لِلْمَسَاحِ وَالشَّوْاطِيءِ الصَّخْرِيَّةِ .

إِنْ فُرْصًا كَهَذِهِ لَمْ نَكُنْ مُتَوَفِّرَةً لِهَنْبِعِلَ . فَالْجَوَاسِيْسُ لَمْ يَكُونُوا مُصْدِرَ
ثِقَةٍ . وَلَمْ تَكُنْ هُنَاكَ خَرَائِطُ لَطَرَقٍ حَيْثُ لَا وُجُودَ لِلطَّرَقِ . وَلَمْ يَخْطُرْ بِأَلِ
أَحَدٍ أَنَّ مِنَ الْمُفِيدِ رَسْمَ خَرَائِطٍ لِلدُّرُوبِ بَيْنَ قَرْيَةٍ وَأُخْرَى . فَالْقَلَّةُ مِنَ السُّكَّانِ
الْمَحَلِّيْنَ الَّذِينَ كَانُوا يَسْتَخْدِمُونَ هَذِهِ الدُّرُوبَ كَانُوا يَبْلُغُونَ مَقَاصِدَهُمْ أَوْ لَا
يَبْلُغُونَهَا . وَكَانَ النَّاسُ يَفْتَرِضُونَ أَنَّ الَّذِينَ لَمْ يَصِلُوا ذَهَبُوا فَرِيْسَةً الذَّنَابِ . وَلَوْ
أَنَّ مِثْلَ تِلْكَ الْخَرَائِطِ وَجِدَتْ لَمَا كَانَ لَهَا فَايْدَةٌ عَمَلِيَّةٌ .

لَمْ يَكُنْ لِهَنْبِعِلَ بِطَبِيعَةِ الْحَالِ دَبَابَاتٌ ، بَلْ فِيلَةٌ وَعَرَبَاتٌ ثَقِيلَةٌ غَيْرُ مُتَقَنَّةٍ
الصُّنْعِ نَجَرُهَا مَجْمُوعَاتٌ مِنَ الثَّيْرَانِ . فَكَانَ جَحْفَلُهُ مِنَ الْمَشَاةِ وَالْفُرْسَانِ
وَعَرَبَاتِ التَّمَوِيْنِ يَمْتَدُّ أَمِّيَالًا . وَحَيْثُمَا يَكُونُ مَوْقِعُ قَائِدِ الْجَيْشِ ، لَمْ يَكُنْ
بِاسْتِطَاعَتِهِ أَنْ يَعْرِفَ يَقِينًا مَاذَا يَحْدُثُ لِجُزْءٍ مِنَ الْجَحْفَلِ عَلَى بُعْدِ عَشْرَةِ
كِيلُومِتْرَاتٍ أَوْ عِشْرِينَ كِيلُومِتْرًا مِنْهُ .

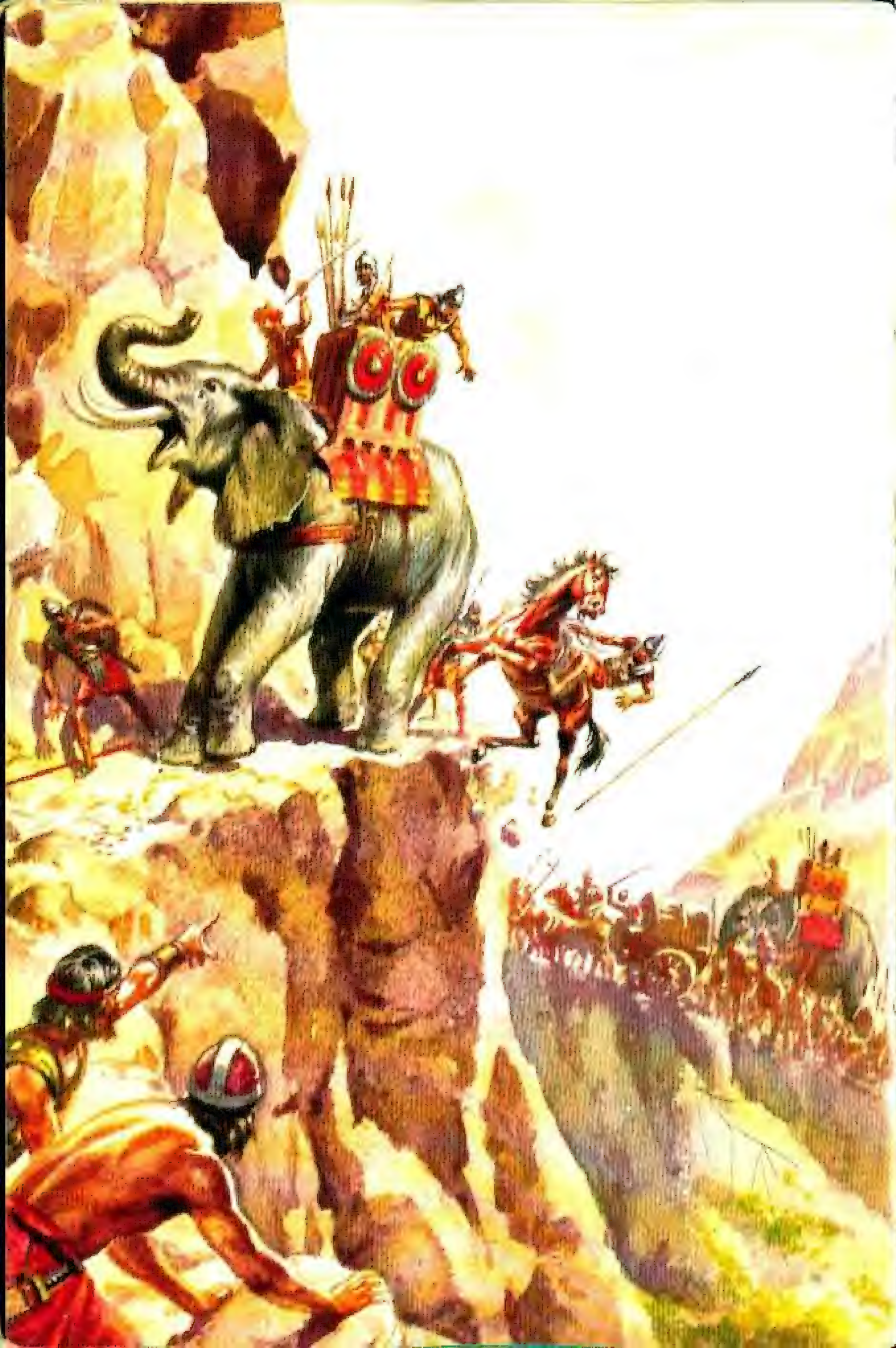
وَلَا شَكَّ أَنَّهُ كَانَ لَدَى هَنْبِعِلَ ضُبَاطُ فُرْسَانٍ يَعُدُّونَ عَلَى طُولِ الْجَحْفَلِ
يَنْفِذُونَ أَوْامِرَهُ أَوْ يُزَوِّدُونَهُ بِأَخْبَارِ أَيِّ هُجُومٍ . وَرَبَّمَا اسْتَنْغَرَقَتْهُمْ الْعَوْدَةُ عَبْرَ
الدُّرُوبِ الصَّخْرِيَّةِ الْمُنْقَطَعَةِ سَاعَاتٍ عِدَّةً ، هَذَا إِذَا تَمَكَّنُوا مِنَ الْعَوْدَةِ . وَقَدْ
يَتَعَذَّرُ عَلَى الْفِيلِ أَنْ يَجْتَازَ مَمَرًا جَبَلِيًّا ضَيِّقًا شَقَّ عَلَى جَانِبِ شَدِيدِ الْأَنْحِدَارِ .



عَبَّرَ هَنِيْبَعْلُ نَهْرَ إِبْرُو بَيْنَ أَوَاخِرِ شَهْرِ آبَار (مايو) وَأَوَائِلِ شَهْرِ تَمُوزَ (يُولْيَةِ).
وَكَانَ أَمْلُهُ أَنْ يَجْتَازَ النَّهْرَ دُونَ كَبِيرِ صُعُوبَةٍ ، غَيْرَ أَنَّ الْقَبَائِلَ السَّلْتِيَّةَ ، رَغْمَ
عَدَاوَتِهَا لِرُومَا ، لَمْ تَكُنْ مُسْتَعِدَّةً لِلتَّرْحِيبِ بِجَيْشِ قَرطَاجِيٍّ . وَلَا شَكَّ أَنَّ
اجْتِيَازَ هَذِهِ الْعَقَبَةِ الْكَادَاءِ الْأُولَى فِي مَسِيرَةِ طَوِيلَةٍ قَدْ عَلَّمَتِ الْجَيْشَ
الْقَرطَاجِيَّ الْمُخْتَلِطَ الشَّيْءَ الْكَثِيرَ .

وَمِنْ أَلْمِهِمْ حِينَ مُطَالَعَةِ حَمَلَةٍ عَسْكَرِيَّةٍ . سَوَاءٌ فِي الزَّمَنِ الْقَدِيمِ أَوْ
الْحَدِيثِ ، أَنَّ تَتَبَعَ عَلَى الْخَارِطَةِ الطَّرِيقَ الَّتِي سَلَكَتُهَا الْحَمَلَةُ . وَإِذَا كَانَتْ
الْخَارِطَةُ عَلَى نَحْوِ يُظْهَرُ نَضَارِيسَ الْبِلَادِ مِنْ أَنْهَارٍ وَجِبَالٍ وَسُهُولٍ بِالْأَلْوَانِ .
أَمْكَنَ تَصَوُّرُ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ الْحَالُ مُنْذُ أَكْثَرِ مِنْ أَلْفِي سَنَةٍ . لَمْ تَكُنْ هُنَاكَ ، فِي
ذَلِكَ الْعَصْرِ . طُرُقٌ مُعَبَّدَةٌ وَسِكَكٌ حَدِيدِيَّةٌ وَمُدُنٌ وَمَطَارَاتٌ غَيْرُ أَنَّ الْجِبَالَ
وَالْأَنْهَارَ هِيَ نَفْسُهَا لَمْ تَتَغَيَّرَ .

وَإِذَا تَنَاوَلْنَا أَيَّ أَطْلَسٍ فَإِنَّهُ يَدُلُّنَا عَلَى أَنَّهُ كُلَّمَا اقْتَرَبَ هَنِيْبَعْلُ مِنَ السَّاحِلِ
زَادَتْ طَرِيقُهُ سُهُولَةً . فَجِبَالُ الْبِيرِنَةِ لَيْسَتْ بِإِرْتِفَاعِ جِبَالِ الْأَلْبِ وَلَيْسَتْ
بِصُعُوبَتِهَا عِنْدَ الْاجْتِيَازِ . وَمِنْ الطَّبِيعِيِّ أَنْ يَسْلُكَ هَنِيْبَعْلُ أَسْهَلَ السُّبُلِ .
وَإِذَا تَتَبَعْنَا عَلَى الْخَارِطَةِ مَمَرَّ الْخَطِّ الْحَدِيدِيِّ بَيْنَ طَرطُوشَةَ فِي إِسْبَانِيَا
وَبِيرِينِيَا فِي فَرَنْسَا ، فَمِنْ الْمُرْجَحِ أَنْ لَا نَكُونَ بِعِيدِينَ جِدًّا عَنْ خَطِّ سَيْرِ
هَنِيْبَعْلٍ وَأَقْبَالِهِ . وَمَعَ أَنَّ الْأَقْيَالَ تَكُونُ مُفِيدَةً جِدًّا فِي غَالِبِ الْأَحْيَانِ ، فَلَا بُدَّ
مِنْ أَنْ يَكُونَ هَنِيْبَعْلُ قَدْ نَسِيَ أَحْيَانًا لَوْ أَنَّهُ لَمْ يَجْلِبْهَا مَعَهُ . وَلَوْ سَأَلْنَا أَيًّا كَانَ
عَمَّا يَعْرِفُ عَنْ هَنِيْبَعْلٍ لَكَانَ جَوَابُهُ عَلَى الْأَرْجَحِ أَنَّهُ ذَاكَ الَّذِي عَبَّرَ جِبَالَ
الْأَلْبِ بِعَدَدٍ مِنَ الْفِيلَةِ .



إِنَّ الْأَرْضَ الْمُسْتَدَّةَ مِنْ نَهْرِ إِبْرُو إِلَى جِبَالِ الْبِيرِنه لَيْسَتْ صَعْبَةً جِدًّا عَلَى جَيْشٍ يَزِيدُ تَعْدَادُهُ عَلَى مِئَةِ أَلْفِ رَجُلٍ ، مِنْهُمْ حَوَالِي اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا مِنَ الْفُرْسَانِ . فِيهِ أَرْضٌ مِنْ نَوْعِ الْقُوَّةِ . وَمِنَ الْأَعْمَالِ الَّتِي يَقُومُ بِهَا أَيْ جَيْشٌ حَتَّى فِي يَوْمِنَا الْحَاضِرِ . تَنْظِيفُ الطَّرِيقِ عَنِ الْأَرْضِ الْوَعْرَةِ . وَفِي هَذَا الْمَجَالِ بِالذَّاتِ وَجَدَ هَنِيئَعُلُ قُوَّةَ الْأَفْيَالِ مُفِيدَةً جِدًّا . فَقَدْ أَزَالَتْ الْحِجَارَةَ الْكَبِيرَةَ وَالْأَشْجَارَ السَّاقِطَةَ الَّتِي كَانَتْ تُسَدُّ طَرِيقَ الْعَرَبَاتِ الَّتِي تَجْرُهَا الثَّيْرَانُ ، كَمَا أَنَّ الْأَفْيَالَ كَانَتْ تَنْشِلُ الْعَرَبَاتِ إِذَا مَا عُلِقَتْ فِي أَوْحَالِ الْمُسْتَنْقَعَاتِ وَعَجِزَتِ الثَّيْرَانُ عَنْ سَحْبِهَا .

وَكَانَ أَمَلُ هَنِيئَعُلَ أَنْ لَا يَخْسَرَ رَجَالًا أَوْ وَقْتًا قَبْلَ وُضُوعِهِ إِلَى حَاجِزِ جِبَالِ الْأَلْبِ . إِلَّا أَنَّهُ نَجَحَ نَجَاحًا جُزْئِيًّا فِي ذَلِكَ . فَقَدْ اسْتَطَاعَ اسْتِمَالَةَ بَعْضِ الْقَبَائِلِ الَّتِي صَادَفَهَا عَنْ طَرِيقِ الْإِقْنَاعِ أَوْ الرِّشْوَةِ لِتَسْمَحَ لِجَيْشِهِ بِالْمُرُورِ ، غَيْرَ أَنَّ بَعْضَهَا الْآخَرَ عَمَدَ إِلَى مَا نُسِمَ بِهِ الْيَوْمَ بِحَرْبِ الْعَصَابَاتِ . وَلَمُعَالَجَةِ هَذِهِ الْقَبَائِلِ وَالتَّأَكُّدِ مِنْ اسْتِثْبَابِ الْأَمْنِ فِي الْمَنَاطِقِ الَّتِي يَتْرَكُهَا هَنِيئَعُلُ وَرَاءَهُ ، أَعَزَّ قُوَّةً مِنْ قُرَابَةِ عَشْرَةِ أَلْفِ رَجُلٍ لِهَذَا الْغَرَضِ .

وَبَرَجَحُ أَنَّ الْجَحْفَلَ الْغَازِيَّ الطُّوِيلَ الْبَطِيءَ وَالْمَكْشُوفَ الْجَوَانِبِ قَدْ أَجْتَازَ سُفُوحَ الْبِيرِنه مِنْ مَمَرٍّ يُعْرَفُ بِأَسْمِ كُولِ دِي بَانُولِ . وَلَيْسَ مِنْ سَبِيلٍ لِلتَّأَكُّدِ مِنَ الطَّرِيقِ الَّذِي سَلَكَهُ هَنِيئَعُلُ . وَلَكِنْ لَا بُدَّ مِنْ أَنَّهُ كَانَ يَرْغَبُ فِي الْبَقَاءِ قُرْبَ السَّاحِلِ قَدَرِ الْمُسْتَطَاعِ . وَالْيَوْمَ تَمَرُّ الْخُطُوطُ الْحَدِيدِيَّةُ عَنِ الْأَنْفَاقِ فِي الْجِبَالِ ، أَمَّا هَنِيئَعُلُ فَكَانَ مُضْطَرًّا لِلْمُرُورِ فَوْقَ الْقَمَمِ أَوْ عَنِ الْمَغَاوِرِ الصَّخْرِيَّةِ .

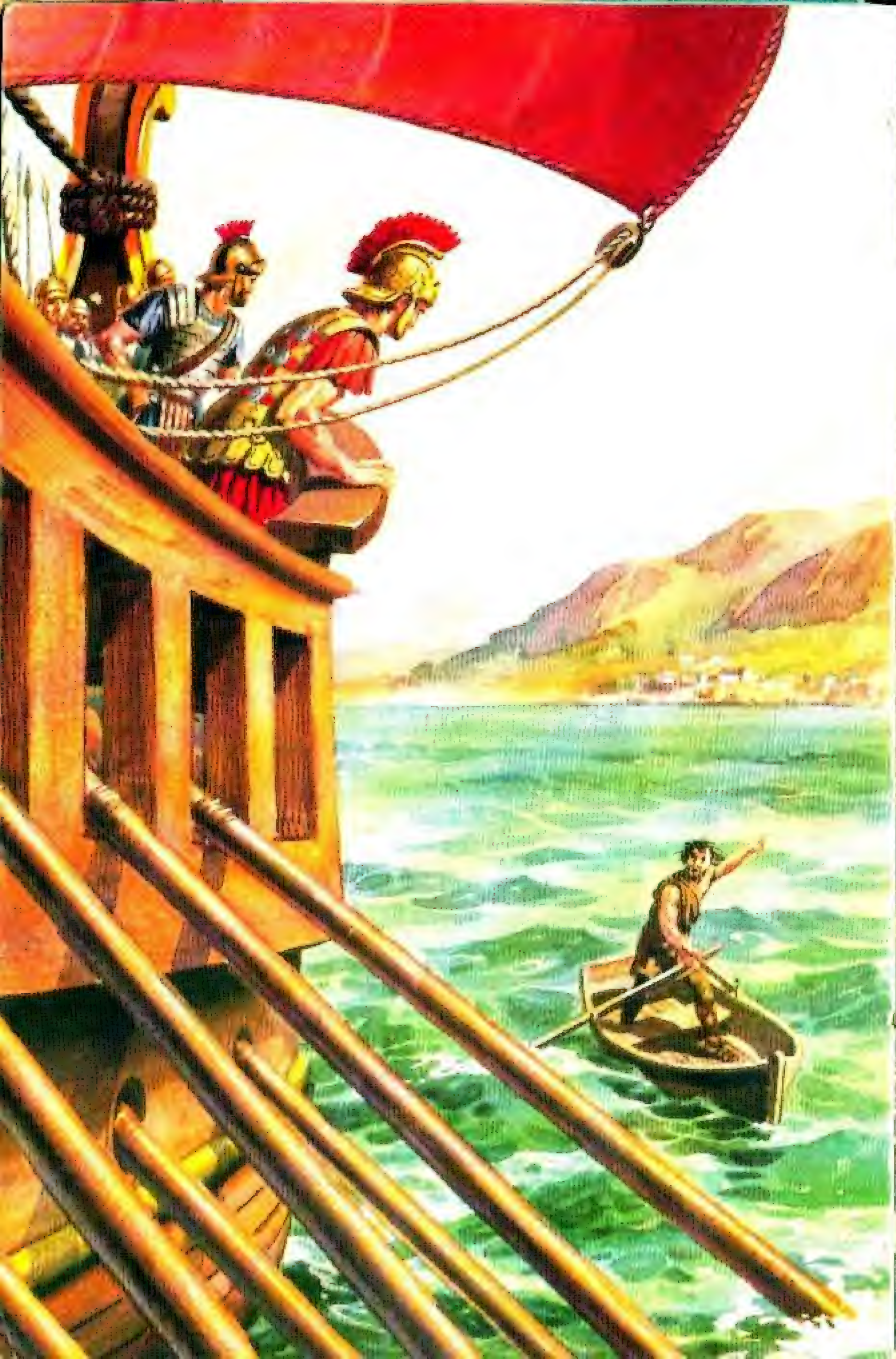


وَفِي هَذِهِ الْأَثْنَاءِ أَرْسَلَ الرُّومَانُ أُسْطُولًا بِقِيَادَةِ بُولْيُوسِ سِيبُولِ لِيُغْزُوا إِسْبَانِيَا ،
وَكَانَ الْقَصْدُ الْإِتِّصَالَ بِجَيْشِ رُومَانِيٍّ آخَرَ يَعْبُرُ الْبِلَادَ مِنْ إِفْرِيقِيَا . وَعَلَى طَرِيقِ
السَّاحِلِ الْفَرَنْسِيِّ الطَّوِيلِ تَوَقَّفَ سِيبُولُ فِي مَرْسِيَلِيَا لِيُطَّلِعَ عَلَى مَا يُمَكِّنُ مَعْرِفَتَهُ
عَنِ الْجَيْشِ الْقَرْطَاجِيِّ الْغَارِي . وَقَدْ ذَهَلَ حِينَ عَلِمَ أَنَّ هَنِيْعَلَّ قَدْ وَصَلَ مِنْذُ
مُدَّةٍ إِلَى الرُّونِ .

أَمَّا هَنِيْعَلُّ فَلَمْ يَضِعْ وَقْتًا . وَقَدْ أَدْرَكَ قِيَمَةَ الْمُبَاغَةِ ، كَمَا أَدْرَكَهَا نَابُولْيُونُ
بَعْدَهُ بِأَلْفِي سَنَةٍ . فَحَثَّ الْخُطَى إِلَى أَنْ وَصَلَ وَادِي الرُّونِ وَقَطَعَ النَّهْرَ وَتَقَدَّمَ
شَمَالًا قَبْلَ أَنْ يُنْزَلَ سِيبُولُ إِلَى الْبَرِّ جُنْدُهُ الَّذِينَ أَصَابَهُمْ دَوَارُ الْبَحْرِ . إِلَّا أَنَّ
سِيبُولَ قَرَّرَ التَّحَرُّكَ بِسُرْعَةٍ . فَالْتَمَعَ الْغَزْوَةُ الْمُقْتَرَحَةَ لِإِسْبَانِيَا ، وَجَعَلَ مُهِمَّتَهُ
الْأُولَى الْعُثُورَ عَلَى جَيْشِ هَنِيْعَلِّ وَتَدْمِيرَهُ .

أَمَّا مِنْ آيَةٍ نُقْطَعُ قَطْعَ هَنِيْعَلُّ نَهْرَ الرُّونِ ، فَلَا نَذْرِي ، وَلَكِنْ يُرَجَّحُ أَنَّهَا
حَيْثُ الْمِيَاهُ ضَحَلَةٌ نَسِيًّا فَوْقَ بَلَدَةِ آرُل . وَلَوْ أَنَّهُ تَحَوَّلَ عَنِ السَّاحِلِ كَمَا يَتَجَنَّبُ
الْمُسْتَنْقَعَاتِ وَالْبَحِيرَاتِ الْمَالِحَةَ بَيْنَ سَيِّتٍ وَمَصَبِ الرُّونِ ، لَمَا اتَّبَعَ الطَّرِيقَ
الْأَقْصَرَ فَحَسَبُ . بَلْ وَلَسَلَكِ الضُّفَّةَ الْغَرْبِيَّةَ لِلرُّونِ الْأَصْغَرَ عَوِضًا عَنْ قَطْعِهِ .
وَلَوْ جَدَّ نَفْسُهُ حَيْثُ يَتَفَرَّغُ الرُّونُ .

وَأَيُّمَا كَانَتْ نَقْطَةُ اجْتِيَازِهِ ، فَإِنَّ الْغَالِيَيْنَ الْمَحَلِّيْنَ عَلَى الضُّفَّةِ الْأُخْرَى
كَانُوا مُصَمِّمِينَ عَلَى صَدِّ الْعُبُورِ . وَرَبَّمَا كَانَ فِي وَسْعِ قَافِلَةٍ مِنْ سَبْعَةٍ وَثَلَاثِينَ
فِيلاً مُنْدَفِعًا نَحْوَ الْبَرِّ أَنْ تُلْقِيَ الرُّعْبَ فِي قُلُوبِهِمْ ، غَيْرَ أَنَّ أَفْيَالًا تُحَاوِلُ النُّزُولَ
إِلَى الْبَرِّ فَوْقَ طَوَافَاتٍ يَصْفُهَا غَارِقٌ تَحْتَ الْمَاءِ ، شَيْءٌ آخَرَ مُخْتَلِفٌ . كَمَا أَنَّ
الْفُرْسَانَ النَّوْمِيدِيِّينَ كَانُوا فِي وَضْعٍ سَيِّئٍ .

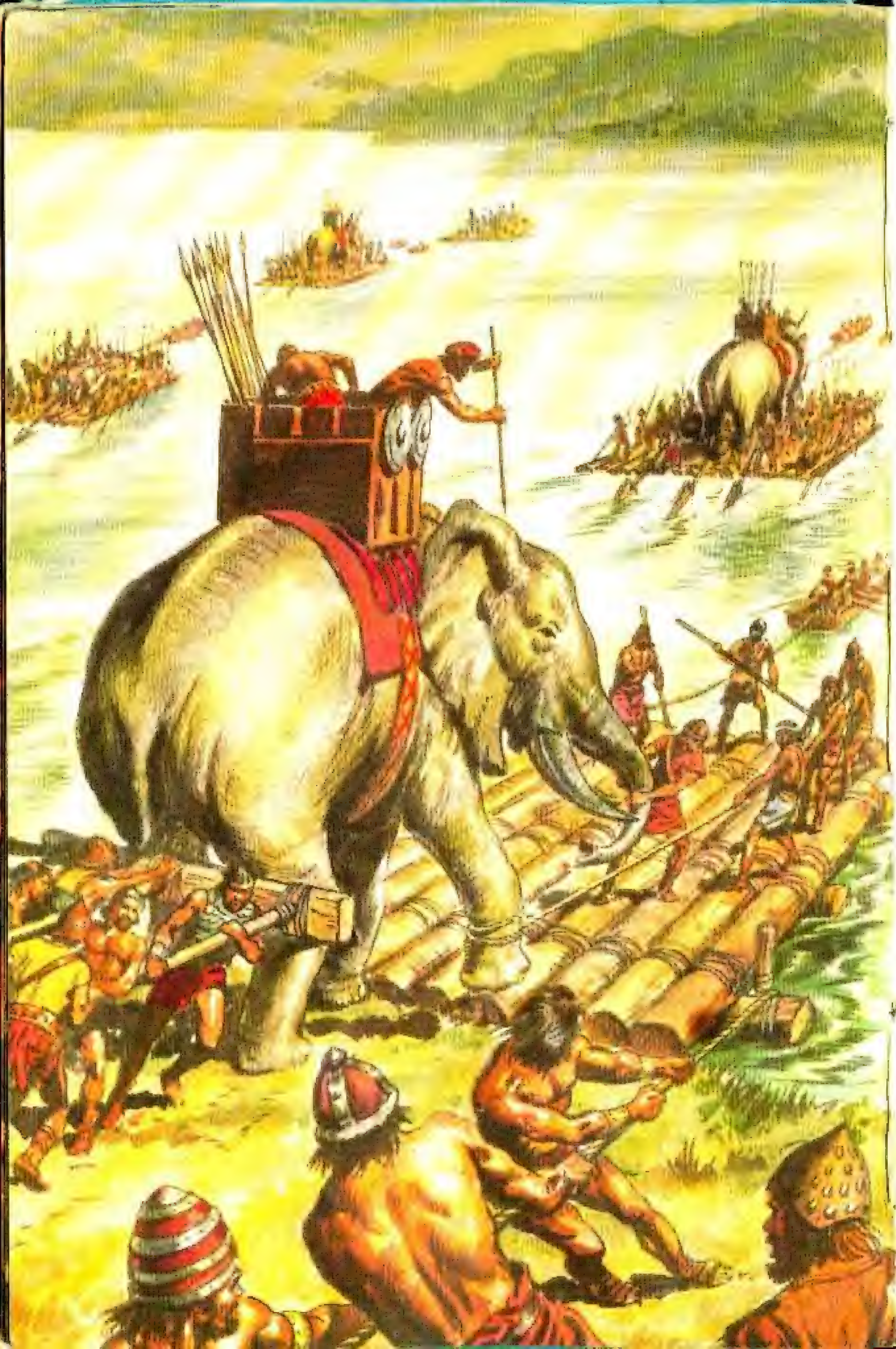


وَلَمْ يَسْتَحِفَّ هِنْبَعْلُ بِصُعُوبَةِ قَطْعِ نَهْرٍ يَزِيدُ عَرْضُهُ عَلَى كِيلُومِتْرٍ وَنِصْفٍ الْكِيلُومِتْرَ. رَغِمَ أَنَّ جَيْشَهُ كَانَ حِينَذَلِكَ قَدْ تَنَاقَصَ عَدَدُهُ إِلَى نَحْوِ سِتِّينَ أَلْفَ رَجُلٍ. أَمَّا السُّكَّانُ عَلَى جَانِبِي النَّهْرِ فَقَدْ كَانُوا مِنْ قَبِيلَةِ فُولَكِيهِ الْعَالِيَةِ الْمُحَارِبَةِ. غَيْرَ أَنَّ سُكَّانَ الضُّفَّةِ الْغَرَبِيَّةِ ارْتَأَوْا الْبَقَاءَ عَلَى الْحَيَادِ، بَلْ إِنَّهُمْ سَاعَدُوا بِنَاءَ الطَّوَافَاتِ مِنْ جُدُوعِ الْأَشْجَارِ عَنْ طَرِيقِ رِبْطِهَا مَعًا. وَيَبِيعُهُمْ هِنْبَعْلُ بِأَسْعَارٍ مُغْرِبَةٍ قَوَارِبَ صَيْدِ السَّمَكِ الصَّغِيرَةِ.

وَحِلَالِ الْيَوْمَيْنِ اللَّذَيْنِ قَضَاهُمَا هِنْبَعْلُ فِي هَذِهِ التَّحْضِيرَاتِ الضَّرُورِيَّةِ. كَانَتْ قَبِيلَةُ فُولَكِيهِ الْمُعَادِيَّةُ عَلَى الضُّفَّةِ الْبَعِيدَةِ مِنَ النَّهْرِ. وَالَّتِي لَمْ يُسَمَحْ لِأَفْرَادِهَا بِقَبُولِ أَيَّةِ رَشْوَةٍ، مَا زَالَتْ تَشْدُقُ بِمَا سَيَلَاقِيهِ أَيُّ قَرَطَاجِيٍّ يُحَاوِلُ الْعُبُورَ. أَمَّا هِنْبَعْلُ فَلَمْ يَتْرِكْ الْأُمُورَ تَجْرِي فِي أَعْيُنِهَا، فَأَوْفَدَ عَشْرَةَ آلَافِ رَجُلٍ لِلْعُبُورِ مِنْ أَعْلَى النَّهْرِ بَعِيداً عَنْ أَعْيُنِ الْفُولَكِيهِ. وَفَجْأَةً وَجَدَ الْغَاثِيُّونَ أَنْفُسَهُمْ عَرْضَةً لِهُجُومِ الْأَلُوفِ مِنْ مُقَاتِلِينَ أَشَدَّاءَ مُسَلَّحِينَ أَحْسَنَ تَسْلِيحٍ يَكْرُونَ عَلَى جَنَاحِهِمْ. فِي حِينِ كَانُوا يَتَوَقَّعُونَ مُجَابَهَةَ رِجَالٍ مُبَلِّغِينَ وَعَلَى وَشَكِّ الْغَرَقِ وَهُمْ يَتَرَلَقُونَ مِنْ عَلَى ضِفَّةِ النَّهْرِ. وَهُنَا فَرَّ رِجَالُ الْفُولَكِيهِ.

وَهَكَذَا اسْتَطَاعَ هِنْبَعْلُ الْعُبُورَ دُونَ مُعَارَضَةٍ. وَلَوْ كَانَتْ هُنَاكَ أَدْنَى مُعَارَضَةٍ لَأَسْتَحَالَتْ عَلَيْهِ مِهْمَةُ نَقْلِ عَرَبَاتِهِ الثَّقِيلَةِ مَعَ ثِيرَانِهَا عَبْرَ نَهْرٍ جَارٍ يَزِيدُ عَرْضُهُ عَلَى كِيلُومِتْرٍ وَنِصْفِ الْكِيلُومِتْرِ. فَعِوْضاً عَنِ الرَّمَاكِ الْمُعَادِيَّةِ، اسْتَقْبَلَتْهُ هُوَ وَرِجَالُهُ أَيْدٍ صَدِيقَةٍ مُعِينَةٍ.

وَمَا أَنْ عَبَرَ رِجَالُهُ وَحَيَوَانَانَهُ النَّهْرَ. حَتَّى تَوَجَّهَ هِنْبَعْلُ شَمَالاً. وَرُبَّمَا كَانَ قَدْ عَلِمَ أَوْ أَنَّهُ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ سَيِّوْ قَدْ أَنْزَلَ فِعْلاً فَيْلَقاً مِنْ رِجَالِهِ فِي مَرْسِيَلِيَا.



كَانَ شَهْرُ تَشْرِينَ الْأَوَّلِ (أَكْتُور) قَدْ حَلَّ ، وَمَضَتْ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ عَلَى عُبُورِ
 نَهْرِ إِبْرُو ، وَلَا يَزَالُ بَيْنَ هَنِيْبَعْلَ وَشَمَالِ إِيطَالِيَا الْحَاجِزُ الطَّبِيعِيُّ الْهَائِلُ وَهُوَ جِبَالُ
 الْأَلْبِ . وَلَنْ تَلْبَثَ الْمَمَرَاتُ الْمُمَكِّنُ عُبُورَهَا أَنْ تُسَدَّ بِالْثُلُوجِ . وَلَمْ يَكُنْ فِي
 وَسْعِ هَنِيْبَعْلَ أَنْتِظَارُ حُلُولِ الصَّيْفِ ، فَحِينَذَاكَ تَكُونُ الْقَبَائِلُ الرُّومَانِيَّةُ تَقُومُ
 بِحِرَاسَةِ النُّزُولِ إِلَى السُّهُولِ . وَكَانَ هَنِيْبَعْلُ ، شَانَهُ شَانُ نَابُولِيُونِ . يَكْسِبُ
 الْمَعَارِكُ بِالْهَجُومِ الْمُبَاغِتِ عَلَى الْعَدُوِّ حِينَ لَا يَتَوَقَّعُهُ . وَلَمْ يَخْطُرْ بِبَالِ الرُّومَانِ
 أَنَّ فِي اسْتِطَاعَةِ جَيْشِ عُبُورِ مَمَرَاتِ الْأَلْبِ قَبْلَ أَنْ يُذِيبَ الرَّبِيعُ ثُلُوجَ الشِّتَاءِ .
 بَعْدَ أَلْفِي سَنَةٍ مِنْ هَنِيْبَعْلَ ، وَاجَهَ نَابُولِيُونُ هَذِهِ الظُّرُوفَ نَفْسَهَا ، وَكَانَ هُوَ
 الْآخِرُ يَقُودُ جَيْشًا إِلَى إِيطَالِيَا فَوْقَ جِبَالِ الْأَلْبِ الْمَكْسُوءَةِ بِالْثُلُوجِ . أَلْفَا سَنَةً لَمْ
 تُحْدِثْ سِوَى اخْتِلَافٍ قَلِيلٍ . كَتَبَ نَابُولِيُونُ يَقُولُ : « إِنَّا نَصَارِعُ الْجَلِيدَ وَالثَّلْجَ
 وَالْأَنْوَاءَ وَالْأَنْهِيَارَاتِ الثَّلْجِيَّةَ ! » عَلَى الْأَقْلَ عَرَفَ نَابُولِيُونُ أَيْنَ كَانَ الْمَمَرُ ،
 وَأَنَّ التُّجَارَ كَانُوا يَسْلُكُونَهُ بِدَوَابِّهِمْ طَوَالَ فَصْلِ الصَّيْفِ .

عَبَّرَ نَابُولِيُونُ مَمَرَّ سَانَ بَرْنَارَ الْكَبِيرِ . وَهُوَ أَبْعَدُ شِمَالًا بِكَثِيرٍ مِنْ ذَلِكَ الَّذِي
 عَبَّرَهُ هَنِيْبَعْلُ إِلَى إِيطَالِيَا . وَلَسْنَا بِحَاجَةِ الْيَوْمِ إِلَى عُبُورِ هَذَا الْمَمَرِ إِلَّا إِذَا كُنَّا
 نَرْغَبُ فِي ذَلِكَ : فَإِمَّا أَنْ نَطِيرَ أَلُوفَ الْأَمْتَارِ فَوْقَهُ ، أَوْ نُسَافِرَ بِالْقِطَارِ تَحْتَهُ .
 وَفِي كِلَا الْحَالَيْنِ نَشْعُرُ بِالْدَّفْءِ وَالرَّاحَةِ . غَيْرَ أَنَّ كُلًّا مِنْ نَابُولِيُونِ وَهَنِيْبَعْلَ كَانَ
 مَقْرُورًا وَمُبْتَلًا وَجَائِعًا وَمَنْهُوكًا . إِذْ إِنَّ كِلَيْهِمَا كَانَ مُسْتَعِيدًا لِمُشَارَكَةِ رِجَالِهِ كُلِّ
 هَذِهِ الْمَشَقَّاتِ ، الْأَمْرَ الَّذِي أَكْسَبَهُ تَفَانِي جَيْشِهِ .

وَفِي مَمَرٍ صَعْبٍ ضَبَقَ خَدَعُ هَنِيْبَعْلُ الْقَبَائِلَ الْمُعَادِيَةَ بِحِيلَةٍ قَدِيمَةٍ جِدًّا .
 إِذْ تَرَكَ نِيرَانَ الْمُعَسْكَرِ مُشْتَعِلَةً بَعْدَ أَنْ غَادَرَهُ جَيْشُهُ .

لَمْ يَكُنْ هَنِيئَعْلُ يَعْرِفُ شَيْئًا عَنْ مَمَرَاتِ جِبَالِ الْأَلْبِ ، كَمَا كَانَتْ قَبْلَ
الْفِي سَنَةِ . فَكَانَ مُضْطَرًّا إِلَى الْاعْتِمَادِ عَلَى مُرْشِدِينَ قَدَمَهُمُ الْغَالِيُونَ الْمَحَلِّيُونَ ،
وَعَالِبًا مَا كَانُوا خَوَنَةً وَعِدَائِيَّينَ .

وَكَثِيرًا مَا كَانَتْ الْكُتْلُ الصَّخْرِيَّةُ الْمُنْهَارَةُ مِنَ الْأَعَالِي تَسُدُّ الشُّعَابَ
وَالْأَخَادِيدَ الضَّيِّقَةَ . وَنَحْتَاجُ مُهَنْدِسِ الطَّرِيقِ فِي أَبَامِنَا هَذِهِ إِلَى جَرَّافَاتٍ
وَمُنْفَجِرَاتٍ قَوِيَّةٍ لِإِزَالَتِهَا . وَلَمْ يَكُنْ لَدَى هَنِيئَعْلَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ . وَحِينَ كَانَ
مِنَ الضَّرُورِيِّ إِزَالَةُ هَذِهِ الْكُتْلِ لِتَوْسِيعِ الدَّرَبِ ، كَانَ رِجَالُهُ يُشْعِلُونَ النَّارَ
تَحْتَهَا . وَمَتَى حَمِيَ الصَّخْرُ صَبُّوا عَلَيْهِ النَّبِيدَ الْمُخَلَّلَ الْبَارِدَ . وَبِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ
يَتَصَدَّعُ أَصْلَبُ الْحِجَارَةِ ثُمَّ يَقْطَعُ وَيُنْقَلُ مِنْ مَكَانِهِ .

وَالْأَفْيَالُ نَحْتَاجُ إِلَى كَمِيَّةٍ كَبِيرَةٍ مِنَ الْأَكْلِ ، وَكَانَتْ أَقَلُّ قُدْرَةٍ عَلَى تَحْمِلِ
الْجُوعِ مِنَ الرُّجَالِ . وَلَمْ تَكُنْ قَدْ أَلْفَتِ الْبَرْدَ وَهِيَ تَكْرَهُ الْمَمَرَاتِ الضَّيِّقَةَ
الْمُعْطَاةَ بِالْجَلِيدِ وَالثَّلْجِ . وَكَمْ تَدَهْوَرُ مِنْ عَرَبَاتٍ وَثِيرَانٍ مِنْ فَوْقِ الْأَخَادِيدِ
الْأَنْحِدَارِيَّةِ أَوْ جَرَفَتِهَا السُّيُولُ الْمُنْدَفِقَةُ مِنَ الْجِبَالِ . وَكَانَ هُنَاكَ دَائِمًا خَطَرُ
الْأَنْهِيَارَاتِ الثَّلْجِيَّةِ وَالصُّخُورِ الْمُنْسَاقِطَةِ . لَا شَكَّ أَنَّ هَذَا اخْتِبَارٌ مُرِيعٌ حَتَّى
وَلَوْ مِنْ غَيْرِ هَجَمَاتِ السُّكَّانِ الْمَحَلِّيِّينَ الْعِدَائِيِّينَ الْمُبَاغِتَةِ . فَلَا غَرْوَ أَنْ يَتَرَاوَى
لِلرُّومَانِ أَنَّ الْأَجْتِيَازَ مُسْتَحِيلٌ .

لَقَدْ اخْتَلَفَ الْمُؤَرِّخُونَ وَمُصَمِّمُو الْخَرَائِطِ ، وَسَيِّقُونَ مُخْتَلِفِينَ حَوْلَ
الطَّرِيقِ الَّتِي أَجْتَازَ مِنْهَا هَنِيئَعْلُ جِبَالِ الْأَلْبِ . وَيَقُولُ الْكُتَّابُ الْمُحَدِّثُونَ أَنَّهُ
اتَّبَعَ طَرِيقَ جَدَاوِلِ الْأَلْبِ مِثْلَ دُرُومٍ وَدُورَانَسٍ وَغَيْلٍ وَكُرَيْسْتِيُونَ . أَمَّا الشَّيْءُ
الْمُهِّمُ حَقًّا فَهُوَ أَنَّهُ نَجَحَ .

أَمْضَى هَنِيْبَعْلُ وَجَحْفَلُهُ الطَّوِيلُ الْهَائِمُ أَكْثَرُ مِنْ أَسْبُوعَيْنِ فِي أَجْتِيَازِ
الْأَلْبِ. وَكَانَا أَسْبُوعَيْنِ مِنَ الْبَرْدِ الْفَارِسِ وَالْجُوعِ الْفَتَّاكِ وَالْجُهِدِ الْمُضْنِي
الْمُسْتَمِرِّ. وَمَا إِنْ تَمَّ الْوُصُولُ إِلَى آخِرِ قِمَّةٍ حَتَّى جَمَعَ هَنِيْبَعْلُ سَرَايَاهُ الرَّئِيسِيَّةَ
وَلَفَتْ نَظَرَ عَنَاصِرِهَا الْمُتَهَكَّةِ الْخَائِرَةِ الَّتِي اسْتَبَدَّ بِهَا الْجُوعُ إِلَى الْوَادِي تَحْتَهَا.
وَقَدْ كَتَبَ الْمُورِخُ الرُّومَانِيُّ لِفِي بَعْدَ مِائَةِ سَنَةٍ يَصِفُ ذَلِكَ الْمَشْهَدَ يَقُولُ :
صَاحَ هَنِيْبَعْلُ : « أَمَامَكُمْ بِلَادُ صَدِيقَةٍ. السُّكَّانُ سِيرَحِبُونَ بَنَاءُ كَاصِدِقَاءَ
وَحُلَفَاءَ ضِدِّ الرُّومَانِ الَّذِينَ يَمُقُّونَهُمْ. وَأَنْتُمْ الَّذِينَ قَهَرْتُمْ أَسْوَأَ مَا يُمَكِّنُ أَنْ
تَفْعَلَهُ الطَّبِيعَةُ ، فِي أَصْعَبِ بَلَدٍ فِي الْعَالَمِ ، لَا عَلَيْكُمْ أَنْ تَخَافُوا جِيُوشًا مِنْ
أَشْبَاهِ الرُّجَالِ. اتَّبِعُونِي ! فَالْنَصْرُ مُوَكَّدٌ ! الطَّرِيقُ مَفْتُوحٌ ، وَالْغَنِيمَةُ هِيَ
رُومَا ! »

إِنْتَعَشَتِ الْأَمَالُ وَبَدَأَ الْجَيْشُ النُّزُولَ الصَّعْبَ ، حَيْثُ كَانَتْ آيَةُ زَلَّةٍ أَوْ
كِبَوةٍ تَعْنِي السَّقُوطَ مِنْ أَرْتِفَاعٍ مِثَالِ الْإِمْتَارِ عَلَى الصُّخُورِ. وَقَدْ فَقِدَ الْعَدِيدُ
مِنَ الْحَيَوَانَاتِ وَالرُّجَالِ ، وَلَكِنْ تَمَّ أَخِيرًا الْوُصُولُ إِلَى الْأَرْضِ. وَتَمَكَّنَ الْجُنُودُ
مِنَ التَّخْيِيمِ ، إِنْ لَمْ يَكُنْ فِي رَاحَةٍ ، فَعَلَى الْأَقْلَى فِي ظُرُوفٍ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ
الَّتِي عَرَفُوهَا مُنْذُ أَنْ بَدَأُوا أَجْتِيَازَ الْأَلْبِ.

وَبَعْدَ أَلْفِي سَنَةٍ مِنْ ذَلِكَ ، شَجَّعَ نَابُولِيُونُ رِجَالَهُ الْمُتَهَلِّكِينَ الْجِبَاعَ
الْمُتَمَرِّدِينَ بِالْإِشَارَةِ إِلَى الْوَادِي الْخَصِيبِ ذَاتِهِ. وَالْيَوْمَ يَقْطَعُ السِّيَاحُ جِبَالَ
الْأَلْبِ نَفْسَهَا طَائِرِينَ عَالِيًا فَوْقَ وَادِي الرُّونِ خِلَالَ دَقَائِقٍ أَقَلِّ عَدَدًا مِنَ الْأَيَّامِ
الَّتِي اسْتَعْرِفَهَا هَنِيْبَعْلُ. وَيَرُونَ تَحْتَهُمُ السَّهْلَ الْخَصِيبَ الَّذِي عَانَتْ جِيُوشُ
هَنِيْبَعْلَ وَنَابُولِيُونِ الْأَمَرَيْنِ فِي الْوُصُولِ إِلَيْهِ.

رَكْنَ هَنِيْبَعْلُ إِلَى مُسَاعِدَةِ سُكَّانِ السُّفُوحِ ، وَهُمْ عَدَدٌ مِنْ قَبَائِلِ غَالِيَّةٍ صَغِيرَةٍ كَانَتْ . عَلَى الرَّغْمِ مِنْ كَرَاهِيَّتِهَا كُلَّهَا لِرُومَا . تَكُنُّ إِحْدَاهَا لِلْقَبَائِلِ الْآخَرَى كَرَاهِيَّةً أَشَدَّ وَأَذَى . فَكَانَ عَلَيْهِ أَنْ يُقْنِعَهَا أَنَّ رُومَا سَتَنْهَارُ كُلِّيًّا إِذَا مَا سَاعَدَتْهُ هَذِهِ الْقَبَائِلُ . وَلَكِنَّهَا كَانَتْ تَشْكُ فِي ذَلِكَ لِسَبَبٍ مَفْهُومٍ . فَقَدْ اتَّفَقَتْ تِلْكَ الْقَبَائِلُ فِرْقَ رُومَا الْحَسَنَةِ التَّسْلُحِ وَالْمُدَرِّبَةِ تَدْرِيبًا مُمْتَازًا . وَحِينَ نَظَرَ الْقَبِيلِيُّونَ إِلَى الرِّجَالِ الْمَنْهُوكِينَ الْجَائِعِينَ ، بَدَأَ لَهُمْ أَنَّهُ يَسْتَحِيلُ عَلَيْهِمْ كَسْبُ مَعْرَكَةٍ وَاحِدَةٍ .

غَيْرَ أَنَّ الْإِقْنَاعَ وَعَرَضَ الْقُوَّةَ جَعَلَا بَعْضُهُمْ بَغِيرَ رَأْيِهِ . وَكَانَ لَا يَزَالُ لَدَى هَنِيْبَعْلَ أَكْثَرُ مِنْ عِشْرِينَ أَلْفَ رَجُلٍ ، بَيْنَهُمُ الْفُرْسَانُ النَّوْمِيدِيُّونَ الْأَشِدَّاءُ وَأَفْيَالُهُ . وَكَانَ عَلَى الْغَالِيِّينَ أَنْ يَخْتَارُوا بَيْنَ جَيْشٍ هُوَ فِي دِيَارِهِمْ . وَالْفَيَالِقُ الرُّومَانِيَّةُ الَّتِي قَدْ تَهَبُّ أَوْ لَا تَهَبُّ لِنَجْدَتِهِمْ .

الْفَيَالِقُ الرُّومَانِيَّةُ كَانَتْ أَقْرَبَ مِمَّا تَوَقَّعُهُ الْغَالِيُّونَ أَوْ هَنِيْبَعْلُ . وَعِنْدَمَا أَخْفَقَ سِيبِيُّ فِي مُلَاقَاةِ الْجَيْشِ الْقَرطَاجِيِّ . أَعَادَ جُنُودَهُ إِلَى السُّفُنِ وَقَفَلَ رَاجِعًا إِلَى رُومَا . وَلَمْ يَخْطُرْ بِبَالٍ مَجْلِسُ الشُّيُوخِ الرُّومَانِيِّ إِطْلَاقًا أَنَّ يَسْتَطِيعَ جَيْشُ اجْتِيَازِ الْأَلْبِ قَبْلَ حُلُولِ الصَّيْفِ . هَذَا إِذَا اسْتَطَاعَ . وَلَمَّا عَلِمُوا أَنَّ هَنِيْبَعْلَ أَصْبَحَ فِي الْجِهَةِ الْجَنُوبِيَّةِ مِنَ الْجِبَالِ وَأَنَّهُ يُجَنِّدُ رِجَالَ الْقَبَائِلِ الْغَالِيَّةِ ، أَرْسَلُوا سِيبِيَّ وَفَيَالِقَهُ وَأَمَرُوهُمْ بِأَنْ يَحْثُوا الْخَطِيئَةَ لِاعْتِرَاضِ سَبِيلِهِ .

وَقَدْ فُوجِيَ هَنِيْبَعْلُ أَيْضًا بِسُرْعَةِ الرُّومَانِ . فَلَمَّا عَلِمَ أَنَّ الْجَيْشَ الرُّومَانِيَّ أَصْبَحَ فِي بِيَاسِيزَا ، أَعَدَّ مَكْمَلًا عِنْدَ نَهْرِ تَرِيْبِيَا . وَقَدْ فُوجِيَ الرُّومَانُ بِالْهُجُومِ الْمُبَاغِتِ فَتَمَرَّقَتْ صُفُوفُهُمْ وَفَرُّوا . وَنَجَا الْقَلِيلُونَ مِنْ مَلَا حَقَّةِ النَّوْمِيدِيِّينَ .



خبر القضاء شبه الكامل على الجيش الروماني ، حمل الغاليين على اتخاذ قرار . فاندفع الألوف من المترددين للانضمام إلى الجانب الظافر ، وتمكن هينغل من الزحف جنوباً مجتازاً جبال الأبينيه ونهر آرنو . فأعد الرومان على عجل جيشاً آخر وبأمره القنصل فلامينيوس احتل أريزو لأغراض مسيرة هينغل نحو روما .

تابع هينغل زحفه باتجاه الجنوب الشرقي مجتازاً أريزو قبل أن يتمكن فلامينيوس من إرغامه على القتال ، الأمر الذي أفسد مخططات الرومان . أما فلامينيوس ، إدراكاً منه لما كان مقدراً له أن يواجهه من لوم عنيف ومن احتقار الجيش له ، فقد سارع إلى تعقب القرطاجيين الذين أصبحوا على الشاطئ الشمالي لبحيرة تراسيمين .

لا بد أن الجانب الشمالي من البحيرة كان أقرب إلى التلال مما هو اليوم . فكل الروايات تؤكد أنه عندما لحق فلامينيوس بجحفل هينغل الطويل ، كان الضباب يحجب المنحدرات الحرجية على يساره . أما اليوم فإنها تبعد حوالي كيلومتر ونصف الكيلومتر . وبدوا أن خطر الوقوع في مكنم لم يخطر ببال القائد الروماني ، وكان في اعتقاده أن القرطاجيين ما زالوا أمامه .

لقد كان مخطئاً ، ففجأة انطلقت من على شماله صيحات مرعبة وقعقة السيوف على الدروع المعدنية وقد قطع هجوم التوميديين كل احتمال للتراجع ، كما أن وجود البحيرة على الجناح الأيمن منع تشكيل الفيلق الروماني . ومرة أخرى خدع هينغل الجيش الروماني ، وربما كان فلامينيوس مخطوفاً لأنه لاقى في تلك المعركة مصرعه .



كَادَ الْخَوْفُ يُصِيبُ الرُّومَانَ بِالشَّلَلِ فَقَدْ تَضَاعَلَ جَيْشُهُمْ إِلَى عَدَدٍ قَلِيلٍ مِنَ
الْهَارِبِينَ . وَقَتْلَ قَائِدِهِمْ . وَالطَّرِيقُ إِلَى رُومَا بَاتَتْ مَفْتُوحَةً ! وَالَّذِينَ نَجَّوْا مِنْ
مُلاحَقَةِ النُّومَيْدِيِّينَ وَتَمَكَّنُوا مِنَ الْعُودَةِ إِلَى رُومَا ، أَشَاعُوا بَيْنَ النَّاسِ قِصَصاً
كَثِيبَةً . إِنَّ تَصَوُّرَ وَقُوعِ حَضَارَتِهِمْ كُلِّهَا تَحْتَ رَحْمَةٍ مُتَوَحِّشِينَ . وَسَوْفَ نِسَائِهِمْ
وَأَطْفَالِهِمْ إِلَى الْعُبُودِيَّةِ . أَشَاعَ الرَّعْبَ بَيْنَ الْمَوَاطِنِينَ . فَقَدْ كَانُوا يَعْتَقِدُونَ دَائِماً
أَنَّ قِيَالِقَ رُومَا الْعَسْكَرِيَّةَ لَا تُقْهَرُ ، وَهِيَ دِرْعٌ يَشْعُرُونَ وَرَاءَهَا بِالْأَمَانِ . غَيْرَ أَنَّ
هَذِهِ الدِّرْعَ لَمْ تَعُدْ مُوجُودَةً .

وَأَزْدَحَمَتِ الطَّرِيقُ الْمُؤَدِّيَّةُ إِلَى الْجَنُوبِ بِجُمُوعِ الْخَائِفِينَ وَالْمَشْرَدِينَ
وَالْقَانِطِينَ . يَهْرَبُونَ مِنْ حَاضِرِ خَطَرٍ إِلَى مُسْتَقْبَلٍ مَجْهُولٍ . فَإِنَّ لَمْ يُعَثَّرْ عَلَى
رَعيِمٍ قَادِرٍ عَلَى تَهْدِئَةِ الشَّعْبِ وَتَشْجِيعِهِ . كَانَتْ نِهَايَةُ رُومَا مَحْتَوِمَةً .
وَفِي هَذِهِ الْمَرَحَلَةِ . كَمَا يَحْدُثُ غَالِباً فِي التَّارِيخِ . انْجَبَتِ السَّاعَةُ
الرَّجُلِ الْمَطْلُوبِ .

وَكَانَ فَابْيُوسَ الرَّجُلِ الَّذِي عُنِيَ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ الطَّارِئَةِ . وَقَدْ أَشْتَهَرَ بِكَوْنِهِ
الْجِنْرَانِ الَّذِي انْقَذَ أَخيراً الْجُمْهُورِيَّةَ الرُّومَانِيَّةَ مِنْ هِنْيِبِعِلِّ الَّذِي خَسِرَ الْبَعْرَكَةَ
الْوَحِيدَةَ الَّتِي تَقَابَلَا فِيهَا . وَمِنْ أَسْمِ فَابْيُوسِ أَشْتَقَّتْ فِي الْإِنْكَلِيزِيَّةِ صِفَةُ نَعْيِ
الشَّخْصِ الَّذِي يَظْفَرُ بِفَضْلِ التَّرِثِ . وَقَدْ أَخْطَأَ هِنْيِبِعِلُّ بِتَخَلُّفِهِ عَنِ الرَّحْفِ
مُبَاشَرَةً عَلَى رُومَا يَوْمَ كَانَتْ الطَّرِيقُ مَفْتُوحَةً أَمَامَهُ . إِذْ تَحَوَّلَ شَرْقاً عَلَى كُرْهِ
مِنْ قَائِدِ فُرْسَانِهِ الَّذِي قَالَ لَهُ مُعَاتِباً : « أَنْتَ تَعْرِفُ كَيْفَ تَكْسِبُ الْمَعَارِكَ .
وَلَكِنَّكَ لَا تَعْرِفُ كَيْفَ تُفِيدُ مِنْ أَنْتِصَارَاتِكَ » . لَمْ يَكُنْ الْقَائِدُ عَلَى صَوَابٍ .
فَجَيْشُ هِنْيِبِعِلِّ لَمْ يَكُنْ مُجَهِّزاً لِمَحَاصِرَةِ مَدِينَةٍ .



بَعْدَ ثَلَاثِ سَنَاتٍ مِنْ كَارِثَةِ ثَرَا سِيمِينَ ، تَمَكَّنَ الرُّومَانُ بِفَضْلِ فَايُوسَ ،
مِنْ حَشْدِ جَيْشٍ قَوَامُهُ ٨٠.٠٠٠ رَجُلٍ وَتَدْرِيهِهِ . وَكَانَتْ الْفَصَائِلُ الَّتِي يُرْسِلُهَا
هَنِيْبَعْلُ لِجَمْعِ الْعَلْفِ تَتَعَرَّضُ لِلْهُجُومِ بِاسْتِمْرَارٍ . وَبِمَا أَنَّ الرُّومَانَ تَمَكَّنُوا
حِينَئِذٍ مِنَ السَّيْطَرَةِ عَلَى الْبَحْرِ ، لَمْ يَعُدْ بِاسْتِطَاعَةِ الْأَمْدَادِ الْوُصُولُ إِلَى
هَنِيْبَعْلَ مِنْ قَرطَاجَةِ . أَضِيفَ إِلَى هَذَا أَنَّ الْقَبَائِلَ فِي جَنُوبِ إِيطَالِيَا وَالَّتِي كَانَ
هَنِيْبَعْلُ يَأْمُلُ فِي تَجْنِيدِهَا ، رَفَضَتْ الْأَنْقِلَابَ عَلَى رُومَا . لَقَدْ أُصِيبَتْ بِلَادُهُمْ
بِالْبَوَارِ . فَإِذَا كَانَ بُوْسَعِ فَايُوسَ الْإِنْتِظَارَ ، فَهُمْ مِثْلُهُ مُنْتَظِرُونَ .
فِي سَنَةِ ٢١٦ ق . م . أَقْدَمَ هَنِيْبَعْلُ عَلَى خُطُوَةِ مُفَاجِئَةٍ حَاسِمَةٍ . فَقَدْ تَعَبَ
مِنْ مُحَاوَلَةِ حَمْلِ فَايُوسَ عَلَى الْقِتَالِ . وَكَانَتْ مَوْنُهُ قَدْ نَضَبَتْ تَقْرِيْبًا ،
فَاسْتَوَلَى عَلَى الْحِصْنِ الرُّومَانِيِّ وَالْمُسْتَوْدَعِ الْغَنِيِّ فِي كَانِيهِ . وَهَذِهِ خُطُوَةٌ لَا
يُمْكِنُ إِغْفَالُهَا . فَكَانَ لَا بُدَّ مِنْ تَدْمِيرِ هَنِيْبَعْلَ وَجَيْشِهِ .
وَلَوْ كَانَ فِي إِمْرَةٍ فَايُوسَ الْفِيَالِقُ الْأَرْبَعَةُ الَّتِي تُشَكِّلُ الْجَيْشَ الرُّومَانِيَّ ،
لَمَّا وَقَعَتْ كَارِثَةُ كَانِيهِ . غَيْرَ أَنَّ فَايُوسَ اضْطُرَّ إِلَى الْعَوْدَةِ إِلَى رُومَا ، وَبَقِيَ
وَرَاءَهُ قَائِدَانِ رُومَانِيَّانِ اخْتَلَفَا عَلَى طَرِيقَةِ خَوْضِ الْمَعْرَكَةِ .
فَانْتَظَرَ هَنِيْبَعْلُ مَعَ مُشَاهِيهِ بَيْنَ مَجْمُوعَتَيْنِ مِنَ الْفُرْسَانِ . وَقَدْ هَاجَمَ الرُّومَانُ
الْوَسَطَ ، وَبَنَاءً عَلَى أَوَامِرِ هَنِيْبَعْلَ تَرَاجَعَ الْمُشَاهَةُ . وَلَمْ يُدْرِكِ الرُّومَانُ أَنَّ ذَلِكَ
كَانَ فِتْحًا آخَرَ مِنْ فِتْحَاخِ هَنِيْبَعْلَ الْعَسْكَرِيَّةِ . فَسَرَّعَانَ مَا تَجَمَّعُوا مَعًا وَتَوَغَّلُوا
أَبْعَدَ فَأَبْعَدَ بَيْنَ الْفُرْسَانِ . وَعِنْدَ إِعْطَاءِ الْإِشَارَةِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهَا أُنْذِفَعَ الْفُرْسَانُ
النُّومِيدِيُّونَ . فَأَرْتَضَتْ صُفُوفُ الرُّومَانِ رَصًا شَدِيدًا حَتَّى إِنَّهُ لَمْ يَعُدْ لَهُمْ مَجَالٌ
لِاسْتِعْمَالِ أَسْلِحَتِهِمْ . فَلَمْ يَنْجُ مِنْهُمْ سِوَى الْقَلِيلِ .

كَانَتْ كَانِيهِ كَارِثَةً . وَبَاتَ مَصِيرُ رُومَا مَرَّةً أُخْرَى فِي يَدِ هَنِيْبَعْلَ . وَلَكِنْ
كَمَا حَدَثَ غَيْرَ مَرَّةٍ فِي تَارِيخِ الْعَالَمِ . أَفْسَدَ الْإِتِّصَارَاتِ فِي مَبْدَانِ الْقِتَالِ .
الْكَاسَّةُ الْحَاقِدُونَ فِي الْوَطَنِ . وَلَمْ يَصِلْ إِلَى هَنِيْبَعْلَ مِنْ قَرْطَاجَةِ سِوَى عَدَدٍ
قَلِيلٍ مِنَ الْفِيلَةِ وَبَعْضِ التَّعْزِيزَاتِ النَّوْمِيدِيَّةِ . وَلَكِنَّهُ حَافِظٌ لِبُضْعِ سَنَوَاتٍ بَعْدَ
ذَلِكَ عَلَى بَقَاءِ جَيْشِهِ يَتَنَقَّلُ فِي أَنْحَاءِ شِبْهِ الْجَزِيرَةِ الْإِيطَالِيَّةِ يَكْسِبُ مَعَارِكَ
صَغِيرَةً . وَلَكِنَّهُ لَمْ يَعُدْ إِطْلَاقًا يُشَكِّلُ تَهْدِيدًا لِرُومَا .

وَأَسْتَرَدَّتْ رُومَا أَنْفَاسَهَا إِلَى حَدٍّ يُمَكِّنُهَا مِنْ إِرْسَالِ فَيْلَقٍ إِلَى إِسْبَانِيَا
وَأَفْرِيقِيَا . أَمَّا مُرْتَزَقَةُ هَنِيْبَعْلَ فَقَدْ تَعَبُوا مِنَ الْحَرْبِ . وَكَانُوا يَهْجُرُونَهُ بِأَعْدَادٍ
مُتَزَايِدَةٍ . وَلَمْ تَعُدْ تَأْتِيهِ تَعْزِيزَاتٌ . وَلَمْ يَعُدْ فِي مَقْدُورِ الْأَرْيَافِ الَّتِي خَرَّبَهَا
جُنُودُهُ أَنْ تُعِدَّهُ بِغِذَاءٍ يَكْفِي رِجَالَهُ أَوْ عِلْفٍ لِأَقْبَالِهِ . لَقَدْ كَانَ لَهُ وَلِرِجَالِهِ لِفَتْرَةٍ
مُسْتَقَرٍّ هَنِيءٍ فِي مُقَاطَعَةِ كَابَوَا . إِلَّا أَنَّ الرُّومَانَ مَا لَبَثُوا أَنْ أَسْتَرَدُّوا تِلْكَ
الْمُقَاطَعَةَ .

وَهَكَذَا أَزْدَادَتْ خَبِيَّةُ أَمَلِ هَنِيْبَعْلَ . وَفِي إِحْدَى الْمَرَّاتِ رَكِبَ حِصَانَهُ
وَأَقْتَرَبَ مِنْ أَسْوَارِ رُومَا وَرَمَى بِرُمَحٍ إِلَى دَاخِلِ الْمَدِينَةِ كَعَلَامَةٍ تَحَدٍّ . أَصْبَحَ
هَنِيْبَعْلُ الْآنَ فِي مَوْقِعِ دِفَاعٍ . وَكَانَ دِفَاعًا شَدِيدًا وَعُدُوَانِيًّا .

فِي هَذِهِ الْأَثْنَاءِ كَانَ هَسْدُرُوبَالُ . أَخُو هَنِيْبَعْلَ مُحْتَفِظًا بِإِسْبَانِيَا . وَنَجَاحُهُ
هُنَاكَ يَعْنِي أَنَّهُ كَانَ خَرًّا لِلزَّخْفِ وَمُسَاعَدَةً الْقَرْطَاجِيِّينَ الْمَذْهُوكِينَ . وَبَعْدَ أَنْ أَجْتَازَ
هَسْدُرُوبَالُ الْأَلْبَ مُلَاقِيًا مُقَاوِمَةً بَسِيطَةً بَعْدَ تِسْعِ سَنَوَاتٍ مِنْ مُرُورِ أَخِيهِ . هَزِمَ
وَقُتِلَ فِي شِمَالِ إِيطَالِيَا . وَأَلْقَتْ دَوْرِيَّةُ رُومَانِيَّةٍ بِرَأْسِهِ بِأَحْتِقَارٍ فِي مُعَسْكَرِ
هَنِيْبَعْلَ .



لم يَبْقَ لِهِنِّيَعْلَ كَبِيرُ أَمَلٍ فِي دَحْرِ رُومَا . فَقَدْ نَجَحَ سَيِّبُو الْأَصْغَرُ مِنْهُ سِنًا فِي
كَسْبِ مَعَارِكِهِ فِي إِسْبَانِيَا ، كَمَا أَنَّهُ عَبَّرَ إِلَى إِفْرِيقِيَا . فَبَاتَتْ قَرْطَاجَةُ فِي خَطَرٍ ،
بَلْ إِنَّهَا وَافَقَتْ عَلَى التَّفَاوُضِ عَلَى الصُّلْحِ عِنْدَمَا عَادَ هِنِّيَعْلُ فِي عَامِ ٢٠٣
ق . م . غَيْرَ أَنَّ وُجُودَ الْقَائِدِ الَّذِي طَالَمَا انْتَصَرَ عَلَى فَيَالِقِ رُومَا بَعَثَ الْأَمَلَ فِي
قُلُوبِ الْقَرْطَاجِيِّينَ الَّذِينَ اسْتَجْمَعُوا شَجَاعَتَهُمْ مُجَدِّدًا وَاسْتَعَدُّوا لِلنِّزَالِ .
عِنْدَئِذٍ كَانَ عَلَى هِنِّيَعْلَ أَنْ يُوَاجِهَ غَضَبَ الْفُرْسَانِ الَّذِينَ طَالَمَا اعْتَمَدَ عَلَى
قُدْرَاتِهِمُ الْقِتَالِيَّةِ الْوَحْشِيَّةِ فِي انْتِصَارَاتِهِ . فَقَدْ انْضَمَّ الْمَلِكُ النُّومِيدِيُّ مَاسِينِيْسَا
إِلَى سَيِّبُو بِأَرْبَعَةِ آلَافٍ مِنَ النُّومِيدِيِّينَ الْمُرْعِيِّينَ الَّذِينَ رَأَوْا الْآنَ فُرْصَةً لِنَهْبِ
مَدِينَةِ قَرْطَاجَةِ الْغَنِيِّ غَنًى فَاحِشًا .

أَدْرَكَ هِنِّيَعْلُ الْخَطَرَ . فَتَقَدَّمَ إِلَى مَوْقِعٍ اسْمُهُ زَامَا وَأَوْفَدَ رُسُلًا إِلَى سَيِّبُو
يَعْرِضُ عَلَيْهِ الْلِقَاءَ . فَالْتَقَيَا ، وَقَالَ هِنِّيَعْلُ : إِنَّ السَّلَامَ هُوَ لِحَيْرِ الطَّرْفَيْنِ ،
فَرَفَضَ سَيِّبُو السَّلَامَ ، وَخَيَّرَ هِنِّيَعْلَ بَيْنَ الْأَسْتِسْلَامِ أَوْ الْقِتَالِ .

بَدَأَتْ مَعْرَكَةُ زَامَا بِهَجْمَةٍ شَرِسَةٍ مِنْ ثَمَانِينَ فِيلًا أَوْ يَزِيدُ ، دَفَعَهَا هِنِّيَعْلُ
أَمَلًا أَنْ يُفَرِّقَ بِهَا الْفَيَالِقَ الرُّومَانِيَّةَ . إِلَّا أَنَّ الْخُطَّةَ أَخْفَقَتْ . فَقَدْ أَفْرَعَ الرُّومَانُ
الْفِيلَةَ بِقَرَعِ الصُّنُوجِ قَرَعًا صَاحِبِيًّا وَبِإِطْلَاقِ نَفِيرِ الْأَبْوَاقِ إِطْلَاقًا نَاشِزًا عَالِيًا ،
فَإِذَا بِالْفِيلَةِ تَعُودُ مُجْفِلَةً إِلَى خُطُوطِ الْقَرْطَاجِيِّينَ . وَوَاجَهَ جُنُودُ هِنِّيَعْلَ
الْمُحَنِّكُونَ مُقَاوِمَةً قَاسِيَةً مِنَ الْفَيَالِقِ الْمُنْتَقِمَةِ ، وَكَانَ مَصِيرُ الْمَعْرَكَةِ لِفَتْرَةٍ مِنَ
الزَّمَنِ مَوْضِعَ شَكٍّ . وَفِي اللَّحْظَةِ الْحَرِجَةِ هَجَمَ نُومِيدِيُو الْمَلِكِ مَاسِينِيْسَا مِنْ
جِهَةِ الْجَنَاحِ . وَكَانَ ذَلِكَ تَكْتِيكًا اتَّبَعَهُ هِنِّيَعْلُ فِي انْتِصَارَاتِهِ الْعَدِيدَةِ . وَلَكِنْ
جَاءَ ضِدُّهُ هَذِهِ الْمَرَّةَ .

شُرُوطُ الصِّلَحِ كَانَتْ مُذَلَّةً لِقَرطَاجَةِ فَلَمْ يُسَمَحْ لِهَذِهِ الْمَدِينَةِ - الدَّوْلَةِ
حَتَّى بِالْبَقَاءِ وَالْمَنَاجِرَةِ . إِلَّا لِأَنَّ أَحَدَ شُرُوطِ الصِّلَحِ كَانَ دَفْعَ عَشْرَةِ آلَافٍ
مِثْقَالٍ مِنَ الْفِضَّةِ عَلَى خَمْسِينَ قِسْطًا . فَلَوْ نَهَبَ الرُّومَانُ قَرطَاجَةَ وَأَحْرَقُوهَا لَمَا
كَانَ يَوْسَعِيهَا أَنْ تَدْفَعَ الْمَالَ الَّذِي كَانَتْ رُومًا تَحْتَاجُهُ .

وَرُبَّمَا قِيلَ إِنْ هَنِيْبَعْلُ خَرَبَ قَرطَاجَةَ إِلَّا أَنَّ الْمَوَاطِنِينَ أَقْرَأُوا بِأَنَّهُ عَبْقَرِيٌّ .
فَلِسَبْعِ سَنَوَاتٍ سَاسَ شُؤُونَ الرِّعِيَّةِ عَلَى نَحْوِ جَيْدِ شَعَرِ الرُّومَانِ إِزَاءَهُ بِالْخَوْفِ
مِنَ الْأَزْدِهَارِ الْمُطَرَّدِ لِمُنَافَسَتِهِمُ الْوَحِيدَةِ الْخَطِرَةِ . وَاعْتَقَدُوا عَنْ حَقٍّ أَنَّهُ لَوْ لَا
هَنِيْبَعْلُ لَمَا اسْتَرَدَّتْ قَرطَاجَةُ أَنْفَاسَهَا . فَلَفَقُوا تَهْمَةً بِأَنَّ جَزِيَةَ الْحَرْبِ لَمْ تُدْفَعْ
كَامِلَةً . وَطَالَبُوا بِاعْتِقَالِهِ وَتَسْلِيمِهِ . وَكَانَ هَنِيْبَعْلُ يَعْلَمُ أَنَّ مَجْلِسَ الشُّيُوخِ
الْقَرطَاجِيِّ مُؤَلَّفٌ مِنْ رِجَالٍ ضَبَقِي الْأَفْقِ . يَحْسُدُونَ رَجُلًا عَبْقَرِيًّا .

تَرَكَ قَرطَاجَةَ وَأُبْحَرَ إِلَى سُورِيَا حَيْثُ كَانَ الْمَلِكُ أَنْطِيُوخُسُ فِي حَرْبٍ مَعَ
رُومًا . وَفِي بَادِي الْأَمْرِ سُرَّ أَنْطِيُوخُسُ كَثِيرًا بِأَنَّ يَظْفَرُ بِمَشُورَةِ هَنِيْبَعْلِ الْعَظِيمِ .
غَيْرَ أَنَّ الْحِظَّ خَانَهُ . فَقَدْ دُمِّرَ أُسْطُولُهُ . وَهَزِمَ الْجَيْشُ الَّذِي لَمْ يَتَّقْ بِهِ هَنِيْبَعْلُ
كَثِيرًا . وَخَامَرَ هَنِيْبَعْلُ شَكًّا فِي أَنَّ الرُّومَانَ سَيَطَالِبُونَ مُجَدَّدًا بِاعْتِقَالِهِ مُقَابِلَ
مُعَاهَدَةِ صُلَحٍ وَأَنَّ أَنْطِيُوخُسَ سَيُؤَافِقُ .

فَعَادَرَ هَنِيْبَعْلُ الْبِلَادَ الْجَاحِدَةَ الثَّانِيَةَ وَفَرَّ إِلَى بَيْتِينَا ، وَهِيَ دَوْلَةٌ أُخْرَى
كَانَتْ فِي حَرْبٍ مَعَ رُومًا . وَبِخُدْعَةٍ مِنْ خِدْعِهِ هَزَمَ أُسْطُولًا رُومَانِيًّا بِأَنَّ الْقَى
عَلَى ظَهْرِ سُنَنِ الرُّومَانِ جِرَارًا مَلَأَى بِالْأَفَاعِي السَّامَةِ . وَكَانَ هَنِيْبَعْلُ آنَذَاكَ قَدْ
جَاوَزَ السَّيْنِ . وَأَدْرَكَ أَنَّ رُومًا لَنْ تَكْفِيَ عَنْ الْمُطَالَبَةِ بِمَوْتِهِ . فَتَنَاوَلَ السَّمَّ
وَبَخَذَهُمْ لِلْمَرَّةِ الْأَخِيرَةِ .



السَّيْلَةُ النَّارِيخِيَّةُ

- | | |
|--|--|
| ٩ - الحَصَارَاتُ الْكُبْرَى : مِصْرُ | ١ - جَان دَارُكُ |
| ١٠ - الحَصَارَاتُ الْكُبْرَى : الْيُونَانُ | ٢ - مَارِكُو بُولُو |
| ١١ - فُلُورُنْسُ نَشْنُغِيلُ | ٣ - الْكَائِثُ سَكُوتُ |
| ١٢ - هَنِيْعَلُ | ٤ - نَابُولِيُونُ |
| ١٣ - الحَصَارَاتُ الْكُبْرَى : | ٥ - كَلِيُونَاتُورَا وَمِصْرُ الْقَدِيمَةُ |
| الْفَابِيْكُنْجَرُ | ٦ - تَشَارْلُزْ دِيْكِنُزْ |
| ١٤ - الحَصَارَاتُ الْكُبْرَى : رُومَا | ٧ - كَرِسْتُوفِرْ كُولُومْبُسُ |
| ١٥ - الحَصَارَاتُ الْكُبْرَى : كُرِيْتُ | ٨ - الْإِسْكَنْدَرُ الْأَكْبَرُ |

Series 561 / Arabic

يُوجَدُ الْآتُ أَكْثَرُ مِنْ ١٥٠ كِتَابًا فِي سِلْسِلَةِ لِيْدِيَرْدُ بِاللْفَتْحَةِ
الْعَرَبِيَّةِ تَشْمَلُ عَدَدًا مِنَ الْمَوَاضِيْعِ يُنَاسِبُ مُخْتَلِفَ الْأَعْمَارِ .
أَطْلُبِ الْبَيَانَ الْخَاصَّ بِهَا مِنْ :

مَكْتَبَةُ لُبْنَانُ ، سَاحَةُ رِيَاضِ الصَّلَحِ ، بَيْرُوتُ